كتاب الفوائد من الطرائف و التلائد

جامعة حسيبة بن بوعلي

الشلف /الجزائر 2016

المقدمة:

بسم الله الرحمان الرحيم   و الصلاة و السلام على أشرف المرسلين محمد و أله.

و بعد ,

فقد جمَعْنا في هذا المُصنَّف المُختَصَر جُمْلَةً منْ أقوال و أفكارِ الحُكماء وكلام المشايخ في كلِّ باب و فنٍّ من أبواب ِالشَّريعة الغرّاء و راعيْنَا فيه التَّنَوُّع و الإختلاف في العقيدة و الفِقْه و الرَّقائق و التَّصوُّف و ....الخ و هو غيْضٌ من فَيْض على كلِّ حال فجاء مُحتَوِيا نفائِسًا ودُرَرًا شتّى و لم نشَأ الإطالَة و انَّما الغايةُ فيه الإشارةُ الى نماذج من ذلك و ذكرى للمُسلمين العاقِلين فانَّ الذِّكرى تنفَعُ المؤمنين و الله المستعَانُ هو حسبُنا و نعم الوكيل و آخِر دعوانا أنْ الحمدُ لله ربِّ العلمين.

رمضان 1437 هجري

مَنْزِلَةُ التَّوحيدِ و مَكَانَتُه:

قالَ **ابنُ أبي العِزِّ الحَنَفِي** رحمه الله تعالى:

" اعلمْ أنَّ التَّوحيدَ أوّلُ دَعوةِ الرُّسلِ، و أوّلُ مَنازلِ الطَّريق، و أوّلُ مَقامٍ يقومُ فيهِ السَّالكُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ... قال تعالى:

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) [النحل: 36].

و لهذا كانَ أوَّل واجبٍ يجبُ علَى المكلَّفِ شهادةُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، لاَ النَّظرُ، و لاَ القصدُ إلىَ النَّظرِ، و لاَ الشَّكُّ، كمَا هيَ أقوالُ لأرْبَابِ الكلامِ المَذمومِ.

بلْ أئِمَّة السَّلفِ كلُّهُمْ مُتَّفِقونَ علىَ أنَّ أوَّلَ مَا يُؤْمَرُ بِهِ العَبْدُ الشَّهَادَتَان

فالتَّوْحِيدُ أوَّلُ مَا يَدْخُلُ بهِ في الإسلامِ، و آخِرُ مَا يَخْرُجُ بِهِ في الدُّنيا،

كَمَا قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عَلَيْه و سَلَّم:"مَنْ كَانَ آخِرَ كَلاَمِهِ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ دَخَلَ الجَنَّة"

و هُو أَوَّلُ وَاجِبٍ، و آخِرُ وَاجِبٍ.

فَالتَّوْحِيدُ أوَّلُ الأمْرِ و آخِرُهُ، أَعْنِي تَوْحِيدَ الألوهيَّة "

قال ابن تيمية رحمه الله:

" إنَّ حَقِيقَة التَّوْحِيدِ أنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، فَلاَ يُدْعَى إلاَّ هُو، وَلاَ يُخْشَى إلاَّ هُوَ،

و لاَ يُتَّقَى إلاَّ هُو، و لاَ يُتَوَكَّل إلاَّ عَلَيْهِ، و لاَ يَكُونُ الدِّينُ إلاَّ لَهُ، لاَ لأَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ،

وَألاَّ نتَّخِذَ المَلاَئِكَة وَالنَبيِّين أرْبَابًا، فَكَيْفَ بِالأَئمَّةِ، و الشُّيُوخ، و العُلَمَاءِ، وَالمُلُوكِ، وَغَيْرِهِم" (منهاج السنة النبوية، لابن تيمية: 490/3).

قال ابن القيِّم رحِمَه الله:

التَّوحِيدُ أَلْطَفُ شَيْءٍ و أَنْزههُ و أَنْظَفُهُ و أَصْفَاهُ، فَأَدْنَى شَيءٍ يَخدِشُهُ و يُدَنِّسُهُ و يُؤَثِّرُ فِيهِ، فَهُوَ كَأَبِيَض ثَوْبٍ يَكُونُ يُؤَثِّرُ فِيهِ أَدْنَى أَثَرٍ، و كَالمِرْآةِ الصَّافِيَةِ جِدًّا أَدْنَى شَيْءٍ يُؤَثِّرُ فِيهَا، و لهذَا تُشَوِّشُهُ اللَّحْظَةُ و اللَّفْظَةُ و الشَّهْوَةُ الخَفِيَّة، فَإِنْ بَادَرَ صَاحِبُهُ و قَلَعَ ذَلِكَ الأَثَرَ بِضِدِّهِ و إلاَّ استَحْكَمَ و صَارَ طَبْعًا يَتَعَسَّرُ عَلَيْهِ قَلْعَ
(الفوائد، لابن القيِّم: 233)

و **قال** :

و منْ تدبَّر أحوال العالم وجَد كُلَّ صلاحٍ في الأرض فسببُه توحيدُ الله وعبادتُه و طاعةُ رسولِه، و كلُّ شرٍّ في العالم و فتنة و بلاء و قحط و تسليطُ عدوٍّ و غيْر ذلك فسببُه مخالفَةُ رسُولِه والدَّعوةُ إلى غيرِ الله و رسُولِه، ومن تدبَّرَ هذا حقَّ التَّدبُّر وتأمَّل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أنْ يَرِثَ اللهُ الأرْضَ ومنْ عليها و هو خيْرُ الوارثين وجَدَ هذا الأمْرَ كذلك في خاصَّةِ نفْسِه و في حقِّ غيْره عمُومًا وخصوصًا و لا قوة إلا بالله العليِّ العظيم. (بدائع الفوائد).

قال ابن رجب الحنبلي :

"ولعلَّ من قال: إنَّ المراد بالاستقامة على التَّوحيد؛ إنّما أراد التَّوحيد الكامل الذي يُحرِّم صاحبه على النار، وهو تحقيق معنى «لا إله إلا الله» فإنَّ الإله هو المعبود الذي يُطاع فلا يُعْصَى خشيةً و إجلالاً و مهابةً و محبةً و رجاءً و توكلا و دعاءً".

قالَ شَيْخُ الْإِسْلَام :

" و هذَا كِتَابُ اللَّهِ مِنْ أَوَّلِهِ إلَى آخِرِهِ و سُنَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ وعَامَّةُ كَلَامِ الصَّحَابَةِ و التَّابِعِينَ و كَلَامُ سَائِرِ الْأَئِمَّةِ مَمْلُوءٌ بِمَا هُوَ نَصٌّ أَو ظَاهِرٌ فِي أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ و تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، و أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ. مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: {**إلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**} [فاطر: 10]،وقَوْلِهِ تَعَالَى: {**إذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إنِّي مُتَوَفِّيكَ و رَافِعُكَ إلَيَّ**} [آلعمران55]،

و قَوْلِه تَعَالَى:{**بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ**}[النساء: 158]، و قَوْلِهِ تَعَالَى: (... {**ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ**}[المعارج: 3]، و قَوْلِه تَعَالَى: {**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ**} [السجدة: 5]،

و قَوْلِهِ تَعَالَى: {**يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ**} [النحل: 50]، و قَوْلِه تَعَالَى: {**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ**} [البقرة: 29]، و قَوْلِه تَعَالَى:{**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**} [الأعراف: 54] و قَوْلِه تَعَالَى: {**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**} [يونس: 3]، فَذَكَرَ التَّوْحِيدَيْنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ. و قَوْلِهِ تَعَالَى { **تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلا الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**}[طه:4] و قَوْلِه تَعَالَى: {**و تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ و كَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ و الْأَرْضَ و ما بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**}[الفرقان:58] و قَوْلِهِ تَعَالَى {**هُو الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ و الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا و ما يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ و ما يَعْرُجُ فِيهَا و هُوَ مَعَكُمْ أين ما كُنْتُمْ و اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ**} [الحديد: 4] فَذَكَر عُمُومَ عِلْمِه و عُمُومَ قُدْرَتِه وعُمُومَ إِحَاطَتِهِ و عُمُومَ رُؤْيَتِهِ.(اجتماع الجيوش الاسلامية لابن القيم).

ذِكْرُ قَوْلِ أَبِي عَمْرٍو الطَّلَمَنْكِيِّ

قَالَ فِي كِتَابِهِ فِي الْأُصُولِ: أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ بِذَاتِهِ. و قَال فِي هَذَا الْكِتَاب أَيْضًا: أَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّة عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ عَلَى حَقِيقَتِهِ لا عَلَى الْمَجَاز ثُمَّ سَاقَ بِسَنَدِهِ عَنْ مَالِكٍ قَوْلَهُ: اللَّهُ فِي السَّمَاءِ و عِلْمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ثُمَّ قَالَ فِي هَذَا الْكِتَاب: و أَجْمَعَ الْمُسْلِمُون مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى:{**و هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا**} [الحديد:4] و نَحْو ذَلِك مِن الْقُرْآن: أَنَّ ذَلِكَ عِلْمُهُ و أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ بِذَاتِه مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ كَيْفَ شاء، و هَذَا لَفْظُهُ فِي كِتَابِه.(اجتماع الجيوش الاسلامية لابن القيم)

عقيدة الْإِمَامِ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ أبي أَحْمَدَ بْنِ الْحُسَيْنِ الشَّافِعِيِّ الْمَعْرُوفِ بابْنِ الْحَدَّادِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

قَال: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ و آلِهِ الطَّاهِرِينَ و سَلَّمْ تَسْلِيمًا أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّكَ وَفَّقَكَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْلِ السَّدَادِ و هَدَاكَ سُبُلَ الرَّشَادِ، سَأَلْتَنِي عَنْ الِاعْتِقَادِ الْحَقِّ و الْمَنْهَجِ الصِّدْقِ الَّذِي يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ الْمُكَلَّفِ أَنْ يَعْتَقِدَهُ و يَلْتَزِمَهُ فَأَقُولُ وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَاب: الَّذِي يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ اعْتِقَادُهُ و يَلْزَمُهُ فِي ظَاهِرِه و بَاطِنِهِ اعْتِمَادُهُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى و سُنَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و آلِهِ وَسَلَّمَ وَإِجْمَاعُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ و أَئِمَّتِهِمُ الَّذِينَ هُم أَعْلَامُ الدِّينِ و قُدْوَةُ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِين و ذَلِك أَنْ يَعْتَقِدَ الْعَبْدُ و يُقِرَّ و يَعْتَرِفَ بِقَلْبِهِ و لِسَانِهِ أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ، فَرْدٌ صَمَدٌ، لَمْ يَلِدْ و لَم يُولَدْ و لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، لا إِلَهَ سِوَاهُ و لا مَعْبُودَ إلا إِيَّاهُ، و لا شَرِيكَ لَه و لا نَظِيرَ لَهُ و لَا و زِيرَ لَهُ و لا ظَهِيرَ لَهُ و لا سَمِيَّ لَهُ و لا صَاحِبَة لَهُ وَلَا وَلَدَ لَهُ قَدِيمٌ أَبَدِيٌّ (أَزَلِيٌّ) أَوَّلٌ مِنْ غَيْرِ بِدَايَةٍ، و آخِرٌ مِنْ غَيْرِ نِهَايَةٍ، مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ مِنَ الْحَيَاةِ و الْقُدْرَةِ و الْعِلْمِ و الْإِرَادَةِ و السَّمْعِ و الْبَصَرِ و الْبَقَاءِ و الْبَهَاءِ و الْجَمَالِ و الْعَظَمَةِ و الْجَلَالِ و الْمَنِّ

و الْإِفْضَالِ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ و لا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ و لا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ و مَا تُخْفِي الصُّدُورُ و لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ و لا فِي السَّمَاءِ ولا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ و لا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ و آفَةٍ و مُقَدَّسٌ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وعَاهَة، الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْبَاعِثُ الْوَارِثُ الْأَوَّلُ الْآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الطَّالِبُ الْغَالِبُ الْمُثِيبُ الْمُعَاقِبُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ قَدَّر كُلَّ شَيْءٍ فَقَضَاهُ و أَبْرَمَهُ و أَمْضَاهُ، مِنْ خَيْرٍ و شَرٍّ و نَفْعٍ و ضُرٍّ و طَاعَةٍ و عِصْيَانٍ، و عَمْدٍ و نِسْيَانٍ، و عَطَاءٍ و حِرْمَانٍ، لَا يَجْرِي فِي مُلْكِهِ مَالا يُرِيدُ، عَدْلٌ فِي أَقْضِيَتِه غَيْرُ ظَالِمٍ لِبَرِّيَّتِه. لا رَادَّ لِأَمْرِه و لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ رَبُّ الْعَالَمِين. إِلَهُ الْأَوَّلِين و الْآخَرِين مَالِكُ يَوْمِ الدِّين: {**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**} [الشورى: 11]

نَصِفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ و عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و آلِه و سَلَّمَ الْكَرِيمِ لا نُجَاوِزُ ذَلِكَ و لا نَزِيدُ بَلْ نَقِفُ عِنْدَهُ و نَنْتَهِي إِلَيْهِ و لا نَدْخُلُ فِيهِ بِرَأْيٍ و لا قِيَاسٍ، لِبُعْدِه عَنِ الْأَشْكَالِ وَالْأَجْنَاس،{**ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ و لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ**} [يوسف: 38]

و أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ و فَوْقَ جَمِيعِ خَلْقِهِ كَمَا أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ و عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ و لَا تَعْطِيلٍ، و لا تَحْرِيفٍ و لا تَأْوِيلٍ، و كَذَلِكَ كَلُّ مَا جَاءَ مِنَ الصِّفَاتِ نُمِرُّهُ كَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ مَزِيدٍ عَلَيْهِ، و نَقْتَدِي فِي ذَلِكَ بِعُلَمَاءِ السَّلَفِ الصَّالِحِ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَنَسْكُتُ عَمَّا سَكَتُوا عَنْهُ و نَتَأَوَّلَ مَا تَأَوَّلُوا و هُمُ الْقُدْوَةُ فِي هَذَا الْبَابِ:{**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ**}[الزمر: 18]،

و نُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ و حُلْوِهِ وَمُرِّهِ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لا مُعَقِّبَ لِمَا حَكَمَ و لا نَاقِض لِمَا أَبْرَمَ، و أَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ حَسَنَهَا و سَيِّئَهَا خَلْقُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ و مَقْدِرَةٌ مِنْهُ عَلَيْهِمْ لا خَالِقَ لَهَا سِوَاهُ و لا مُقَدِّرَ لَهَا إلا إِيَّاه{**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**}[النجم:31] ،{**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**}[الأنبياء: 23] فَإِنَّهُ عَدْلٌ فِي ذَلِكَ غَيْرُ جَائِرٍ لا يَظْلِمَهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ:(**و إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**) و كَذَلِك الْأَرْزَاقُ و الْآجَالُ مُقَدَّرَةٌ لا تَزِيدُ و لا تَنْقُصُ، و نُؤْمِنُ و نُقِرُّ و نَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ و رَسُولُهُ و خِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ وَأَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ،

و نُؤمِنُ أَنَّ كُلَّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَقٌّ، و أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَقٌّ، و أَنَّ الْمَلَائِكَة حَقٌّ، و أَنَّ جِبْرَائِيلَ حَقٌّ، و ميكَائِيل حُقٌّ، و إِسْرَافِيلَ حُقٌّ، وَعِزْرَائِيلَ حَقٌّ، وحَمَلَة الْعَرْشِ و الْكِرَامَ الْكَاتِبِين منَ الْمَلَائِكَة حَقٌّ، و أَنَّ الشَّيَاطِين و الْجِنَّ حَقٌّ، و أَنَّ كَرَامَات (الْأَوْلِيَاءِ و مُعْجِزَاتِ) الْأَنْبِيَاءِ حَقٌّ، و الْعَيْنَ حَقٌّ، و السِّحْرَ لَهُ حَقِيقَةٌ و تَأْثِيرٌ في الْأَجْسَام، و مُسَائَلَة مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ حَقٌّ، و فِتْنَة الْقَبْرِ حَقٌّ و نَعِيمَهُ حَقٌّ، و عَذَابَه حَقٌّ و الْبَعْثَ حَقٌّ بَعْدَ الْمَوْتِ. و قِيَام السَّاعَةِ و الْوُقُوفَ بَيْنَ يَدَي اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَاب و الْقِصَاص و الْمِيزَان حُقٌّ، و الصِّرَاطَ حَقٌّ، و الْحَوْض و الشَّفَاعَة الَّتِي خُصَّ بها (نَبِيُّنَا) يوم الْقِيَامَةِ حَقٌّ، و الشَّفَاعَةَ منَ الْمَلَائِكَة و النَّبِيِّين و الْمُؤْمِنِين حَقٌّ، و الْجَنَّة حَقٌّ، و النَّارَ حَقٌّ، و أَنَّهُمَا مَخْلُوقَتَانِ لا يَبِيدَان و لا يَفْنَيَان، و خُرُوج الْمُؤْمِنِين مِنَ النَّارِ بَعْدَ دُخُولها حَقٌّ، و لا يَخْلُدُ فِيهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَأَهْلَ الْكَبَائِرِ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُقْطَعُ عَلَيْهِمْ بِالنَّار و لَكِنْ يُخَافُ عَلَيْهِمْ، و لا يُقْطَعُ لِلطَّائِعِينَ بِالْجَنَّةِ بَلْ نَرْجُو لَهُم، و أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ و مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ و عَمَلٌ بِالْجَوَارِح و أَنَّهُ يَزِيدُ و يَنْقُصُ، و أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ

عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ حِجَابٍ و أَنَّ الْكُفَّار عَنْ رُؤْيَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ مَحْجُوبُونَ وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و آلِه و الْكَلِمَاتِ التَّامَّاتِ الَّتِي عَجَزَتِ الْإِنْسُ و الْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِه و لَو كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَمَا قَالَ الْمُعْتَزِلَةُ، و لا عِبَارَةً كَما قَال الكِلَابِيُّ، و أَنَّهُ الْمَتْلُوُّ بِالْأَلْسِنَةِ الْمَحْفُوظُ فِي الصُّدُور الْمَكْتُوبُ في الْمَصَاحِفِ الْمَسْمُوعُ لَفْظُهُ الْمَفْهُومُ مَعْنَاهُ لَا يَتَعَدَّدُ بِتَعَدُّدِ الصُّدُور و الْمَصَاحِفِ و الْآلَات و لا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَاف الْحَنَاجِرِ و النَّغَمَات أَنْزَلَهُ إِذَا شَاءَ و يَرْفَعُهُ إِذَا شَاء و هَذَا مَعْنَى قَوْلِ السَّلَفِ مِنْهُ بَدَأَ و إِلَيْه يَعُودُ، و اللَّفْظِيَّةُ الَّذِينَ يَقُولُونَ أَلْفَاظًا بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقَةٌ مُبْتَدَعَةٌ جَهْمِيَّةٌ عِنْدَ الإِمَامِ **أَحْمَدَ** و **الشَّافِعِيِّ** أَخْبَرَنَا بِه الْحُسَيْنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ **الطَّبَرِيُّ**، قَالَ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ يُوسُفَ **الشَّالَنْجِيَّ** يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ **الْقَطَّانَ** يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ **الْجُنَيْدِ** يَقُولُ: سَمِعْتُ الرَّبِيعَ يَقُولُ: سَمِعْتُ **الشَّافِعِيَّ** يَقُولُ: مَنْ قَالَ لَفْظِي بِالْقُرْآنِ أَو الْقُرْآنُ بِلَفْظِي مَخْلُوقٌ فَهُوَ جَهْمِيٌّ. و حُكِي بِهَذَا اللَّفْظِ عَنْ **أَبِي زُرْعَةَ** وَعَلِيِّ **بْنِ خَشْرَمٍ** وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ و أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تَظْهَرُ عِنْدَ قُرْبِ السَّاعَةِ مِنَ الدَّجَّالِ وَنُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالدُّخَانِ وَالدَّابَّةِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ بِهَا الْأَخْبَارُ الصِّحَاحُ حَقٌّ، و أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْقَرْنُ الْأَوَّلِ و هُمُ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ و خَيْرُهم الْعَشَرَةَ الَّذِينَ شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و آلِهِ و سَلَّمَ بِالْجَنَّةِ و خَيْرُ هَؤُلَاءِ الْعَشَرَةِ أَبُو بَكْرٍ و عُمَرُ و عُثْمَانُ وعَلِيٌّ رَضِي اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُم، و نَعْتَقِدُ حُبَّ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و آلِه و سَلَّمَ وأَزْوَاجِهِ و سَائِر أَصْحَابِهِ رِضْوَان اللَّه عَلَيْهِمْ و نَذْكُرُ مَحَاسِنَهُمْ و نَنْشُرُ فَضَائِلَهُم و نَمْسِكُ أَلْسِنَتَنا و قُلُوبَنَا عَنِ التَّطَلُّعِ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، و نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لَهُمْ و نَتَوَسَّلُ إِلَى اللَّه تَعَالَى بِاتِّبَاعِهِم، نَرَى الْجِهَادَ والْجُمْعَة وَالْجَمَاعَة مَاضِيَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ و السَّمْعُ و الطَّاعَةُ لِوُلَاة الْأَمْرِ

مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَاجِبٌ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ مَعْصِيَتِهِ لَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ و لا الْمُفَارَقَةُ لَهُمْ و لا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذَنْبٍ عَمِلَهُ وَلَوْ كَبُرَ، و لا نَدَعَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِمْ بَلْ نَحْكُمُ فِيهِمْ بِحُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و آلِهِ و سَلَّمَ و نَتَرَحَّمُ عَلَى مُعَاوِيَةَ و نَكِلُ سَرِيرَةَ يَزِيدَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،

و قَدْ رَوَى عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا رَأَى رَأْسَ **الْحُسَيْنِ** رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَالَ: لَقَدْ قَتَلَكَ مَنْ كَانَتِ الرَّحِمُ بَيْنَكَ و بَيْنَهُ قَاطِعَةً، و نَبْرَأُ مِمَّنْ قَتَلَ **الْحُسَيْنَ** رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ و أَعَانَ عَلَيْهِ و أَشَارَ بِهِ ظَاهِرًا أَوْ بَاطِنًا هَذَا اعْتِقَادُنَا وَنَكِلُ سَرِيرَتَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، و الْعِبَارَةُ الْجَامِعَةُ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ أَنْ يُقَالَ: إِثْبَاتٌ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَنَفْيٌ مِنْ غَيْرِ تَعْطِيلٍ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: 11] و الْعِبَارَةُ الْجَامِعَةُ فِي الْمُتَشَابِهِ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ أَنْ يُقَالَ: آمَنْتُ بِمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَا أَرَادَهُ و آمَنْتُ بِمَا قَال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و آلِه و سَلَّمَ عَلَى مَا أَرَادَهُ، فَهَذَا اعْتِقَادُنَا الَّذِي نَتَمَسَّكُ بِه ونَنْتَهي إِلَيْهِ ونَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُحْيِيَنَا(عَلَيْهِ) وَيُمِيتَنَا عَلَيْهِ و يَجْعَلَهُ و سِيلَتَنَا يَوْمَ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْه إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ و الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

من وصية الامام ابنُ القيِّم لأحد اخوانه:

لله المسؤول المرجو الْإِجَابَة أَن يُحْسِنَ إِلَى الْأَخ عَلَاء الدّين فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة و ينفَعَ بِهِ و يجعلهُ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كَانَ، فَإِن بركَة الرجل تَعْلِيمه للخير حَيْثُ حلَّ ونُصْحُهُ لكل من اجْتمع بِهِ قَالَ الله تَعَالَى إِخْبَارًا عَن الْمَسِيح {**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْن مَا كنت**} أَي مُعلِّمًا للخير دَاعيًا إِلَى الله مُذكِّرًا بِهِ مُرغِّبًا فِي طَاعَته فَهَذَا من بركَة الرجل، و منْ خلا من هَذَا فقد خلا من الْبركَة ومُحِقَت بركَة لِقَائِه و الاجتماع بِهِ بل تمحق بركَة من لقِيه وَاجْتمعَ بِهِ، فَإِنَّهُ يضيع الْوَقْت فِي الماجريات وَيفْسد الْقلب، و كلُّ آفَة تدخل على العَبْد فسببها ضيَاع الْوَقْت وَفَسَاد الْقلب وتعود بضياع حَظه من الله و نقصان دَرَجَته و منزلته عِنْده، و لِهَذَا وصّى بعض الشُّيُوخ فَقَالَ احْذَرُوا مُخَالطَة منْ تضيع مخالطته الْوَقْت وتفسد الْقلب فَإِنَّهُ مَتى ضَاعَ الْوَقْت و فَسَد الْقلب انفرطت على العَبْد أُمُوره كلهَا وَكَانَ مِمَّن قَالَ الله فِيهِ {**و لا تُطِع من أغْفَلنَا قلبه عَن ذكرنَا وَاتبع هَوَاهُ و كَانَ أمره فرطا** }

و من تَأمل حَال هَذَا الْخلق وجدهم كلهم إلا أقل الْقَلِيل مِمَّن غفلت قُلُوبهم عَن ذكر الله تَعَالَى و اتَّبعُوا أهواءهم و صَارَت أُمُورهم و مصالحهم {**فرطا**} أَي فرَّطُوا فِيمَا يَنْفَعهُمْ و يعود بصلاحهم و اشْتَغلُوا بِمَا لا يَنْفَعهُمْ بل يعود بضررهم عَاجلا و آجلا.

و هَؤُلَاء قد أمر الله سُبْحَانَهُ رَسُوله ألا يطيعهم فطاعة الرَّسُول لاتتم إِلَّا بِعَدَم طَاعَة هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُم إِنَّمَا يدعونَ إِلَى مَا يشاكلهم من اتِّبَاع الْهوى و الغفلة عَن ذكر الله،

و الغفلة عَن الله وَالدَّار الْآخِرَة مَتى تزوجت بِاتِّبَاع الْهوى تولد مَا بَينهمَا كل شَرّ وَكَثِيرًا مَا يقْتَرن أَحدهمَا بِالْآخِرَة وَلَا يُفَارِقهُ أَو يكون عَارِفًا بالهداية فِيهَا فَأَتَاهَا على غير وَجههَا عمدا فَهُوَ مُحْتَاج إِلَى التَّوْبَة مِنْهَا أَو أُمُور لم يعرف وَجه الْهِدَايَة فِيهَا علما و لَا عملا ففاتته الْهِدَايَة إِلَى علمهَا ومعرفتها و إِلَى قَصدهَا و إرادتها وعملها أَو أُمُور قد هدي إِلَيْهَا من وَجه دون وَجه فَهُوَ مُحْتَاج إِلَى تَمام الْهِدَايَة فِيهَا أَو أُمُور قد هدي إِلَى أَصْلهَا دون تفاصيلها فَهُوَ مُحْتَاج إِلَى هِدَايَة التَّفْصِيل أَو طَرِيق قد هدي أليها وَهُوَ مُحْتَاج إِلَى هِدَايَة أُخْرَى فِيهَا فالهداية إِلَى الطَّرِيق شَيْء و الْهِدَايَة فِي نفس الطَّرِيق شَيْء آخر، أَلا ترى أَن الرجل يعرف أَن طَرِيق الْبَلَد الْفُلَانِيّ هُوَ طَرِيق كَذَا وَكَذَا وَلَكِن لَا يحسن أَن يسلكه فَإِن سلوكه يحْتَاج إِلَى هِدَايَة خَاصَّة فِي نفس السلوك كالسير فِي وَقت كَذَا دون وَقت كَذَا وَأخذ المَاء فِي مفازة كَذَا مِقْدَار

كَذَا و النُّزُول فِي مَوضِع كَذَا دون كَذَا فَهَذِهِ هِدَايَة فِي نفس السّير قد يهملها من هُوَ عَارف بِأَن الطَّرِيق هِيَ هَذِه فَيهْلك و يَنْقَطِع عَن الْمَقْصُود و كَذَلِكَ أَيْضا ثمَّ أُمُور هُوَ مُحْتَاج إِلَى أَن يحصل لَهُ فِيهَا من الْهِدَايَة فِي الْمُسْتَقْبل مثل مَا حصل لَهُ فِي الْمَاضِي، و أُمُور هُو خَال عَن اعْتِقَاد حق أَو بَاطِل فِيهَا فَهُوَ مُحْتَاج إِلَى هِدَايَة الصَّوَاب فِيهَا و أُمُور يعْتَقد أَنه فِيهَا على هدى و هُو على ضَلَالَة و لَا يشْعر فَهُوَ مُحْتَاج إِلَى انْتِقَاله عَن ذَلِك الِاعْتِقَاد بهداية من الله و أُمُور قد فعلهَا على وَجه الْهِدَايَة و هُو مُحْتَاج إِلَى أَن يهدي غَيره إِلَيْهَا و يُرْشِدَهُ و ينصَحَهُ فإهمالُه ذَلِك يفوت عَلَيْهِ من الْهِدَايَة بِحَسبِهِ كَمَا أَن هدايته للْغَيْر و تعليمه و نصحه يفتح لَهُ بَاب الْهِدَايَة فَإِن الْجَزَاء من جنس الْعَمَل، فَكلما هدى غَيره وَعلمه هداه الله و علمه فَيصير هاديا مهديا كَمَا فِي دُعَاء **النَّبي صلى الله عَلَيْهِ و سلم** الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ و غَيره **"اللَّهُمَّ زينا بزينة الْإِيمَان واجعلنا هداة مهتدين غير ضَالِّينَ وَلَا مضلين سلما لأوليائك حَربًا لأعدائك نحب بحبك من أحبك ونعادي بعداوتك من خالفك"**.

قد أثنى الله سُبْحَانَهُ على عباده الْمُؤمنِينَ الَّذين يسألونه أَن يجعلهم أَئِمَّة يُهْتَدى بهم فَقَالَ تَعَالَى فِي صِفَات عباده {**وَالَّذين يَقُولُونَ رَبنَا هَب لنا من أزواجنَا وَذُرِّيَّاتنَا قُرَّة أعين واجعلنا لِلْمُتقين إِمَامًا**} قَالَ **ابْن عَبَّاس** يهتدى بِنَا فِي الْخَيْر، و قَالَ **أَبُو صَالح** يقْتَدى بهدانا، و قَالَ **مَكْحُول** أَئِمَّة فِي التَّقْوَى يَقْتَدِي بِنَا المتقون، و قَالَ **مُجَاهِد** اجْعَلْنَا مُؤْتَمِّين بالمُتَّقِين مُقْتَدِين بهم و أشكل هَذَا التَّفْسِير على منْ لمْ يعرفْ قدْرَ فهْمِ السّلف وعُمْقِ علمهمْ و قَالَ يجب أَن تكون الْآيَة على هَذَا القَوْل من بَاب المقلوب على تَقْدِير وَاجعَل الْمُتَّقِينَ لنا أَئِمَّة ومعاذ الله أَن يكون شَيْء مقلوبا على وَجهه و هَذَا من تَمام فهم مُجَاهِد رَحمَه الله فَإِنَّهُ لَا يكون الرجل إِمَامًا لِلْمُتقين حَتَّى يأتم بالمتقين فنبه مُجَاهِد على هَذَا الْوَجْه الَّذِي ينالون بِهِ هَذَا الْمَطْلُوب وَهُوَ اقتداؤهم بالسلف الْمُتَّقِينَ من قبلهم فيجعلهم الله أَئِمَّة لِلْمُتقين من بعدهمْ وَهَذَا من أحسن الْفَهم فِي الْقُرْآن و أَلطفه لَيْسَ من بَاب الْقلب فِي شَيْء فَمن ائتم بِأَهْل السّنة قبله ائتم بِهِ من بعده و من مَعَهُ وحد سُبْحَانَهُ لفظ {إِمَامًا} و لم يقل و اجعلنا لِلْمُتقين أَئِمَّة فَقيل الإِمَام فِي الْآيَة جمع آم نَحْو صَاحب وصحاب و هَذَا قَول **الْأَخْفَش** و فِيه بعد و لَيْسَ هُوَ من اللُّغَة الْمَشْهُورَة المستعملة الْمَعْرُوفَة حَتَّى يُفَسر بهَا كَلَام الله، و قَالَ آخَرُونَ الإِمَام هُنَا مصدر لَاسم يُقَال أَمَّ إِمَامًا نَحْو صَامَ صياما و قَامَ قيَاما أَي اجْعَلْنَا ذَوي إِمَام و هَذَا أَضْعَف من الَّذِي قبله قَالَ الْفراء إِنَّمَا قَالَ {**إِمَامًا**} و لم يقل أَئِمَّة على نَحْو قَوْله {**إِنَّا رَسُول رب الْعَالمين**} و لم يقل رَسُولا و هُوَ من الْوَاحِد المُرَاد بِهِ

الْجمع لقَوْل الشَّاعِر

يَا عاذلاتي لَا تردن ملامتي ... إِن العواذل لَيْسَ لي بأمي

أَي لَيْسَ لي بأمراء

و هَذَا أحسن الْأَقْوَال غير أَنه يحْتَاج إِلَى مزِيد بَيَان و هُوَ أَن الْمُتَّقِينَ كلهم على طَرِيق وَاحِد ومعبودهم وَاحِد وَأَتْبَاع كتاب وَاحِد وَنَبِي وَاحِد وَعبيد رب وَاحِد فدينهم وَاحِد ونبيهم وَاحِد وكتابهم وَاحِد ومعبودهم وَاحِد فكأنهم كلهم إِمَام وَاحِد لمن بعدهمْ ليسو كالأئمة الْمُخْتَلِفين الَّذين قد اخْتلفت طرائِقهم ومذاهبُهم وعقائِدُهم فالائتمام إِنَّمَا هُوَ بماهم عَلَيْهِ و هُوَ شَيْء وَاحِد و هُوَ الإِمَام فِي الْحَقِيقَة.

من كلام الامام ابنُ القيِّم

بَيَانُ مَنْزِلَةِ السُّنَّة

فَإِنَّ السُّنَّة حِصْنُ اللَّهِ الْحَصِينُ الذي مَنْ دَخَلَهُ كَان منَ الْآمِنِينَ. و بَابُهُ الْأَعْظَمُ الذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ إِلَيْهِ مِنَ الْوَاصِلِينَ تَقُومُ بِأَهْلِهَا و إِنْ قَعَدَتْ بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ و يَسْعَى نُورُهَا بيْنَ أَيدِيهِم.

إذَا طُفِئَت لِأَهْلِ "الْبِدَعِ و النِّفَاقِ أَنْوَارُهُمْ "، و أَهْلُ السُّنَّةِ: هُمُ الْمُبْيَضَّةُ وُجُوهُهُمْ إِذَا اسْوَدَّتْ وُجُوهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**} [آل عمران: 106]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالِائْتِلَافِ وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ وَالتَّفَرُّقِ.

و هيَ الْحَيَاةُ و النُّورُ " اللَّذَانِ " بِهِمَا سَعَادَةُ الْعَبْدِ و هُدَاهُ و فَوْزُهُ قَالَ جَلَّ وعَلا: {**أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ و جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا. . .**} [الأنعام: 122].

بَيَانُ مَنْزِلَةِ صَاحِبِ السُّنَّة و صَاحِب الْبِدْعَةِ

فَصَاحِبُ السُّنَّة: حَيُّ الْقَلْبِ، مُسْتَنِيرُ الْقَلْبِ، و صَاحِبُ الْبِدْعَةِ : مَيِّتُ الْقَلْبِ مُظْلِمُهُ. و قَدْ ذَكَر اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذَيْنِ الْأَصلَيْنِ فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَجَعَلَهُمَا صِفَةَ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَجَعَلَ ضِدَّهُمَا صِفَةَ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْإِيمَانِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ الْحَيَّ الْمُسْتَنِيرَ هُوَ الَّذِي عَقَلَ عَنِ اللَّهِ، و أَذْعَن و فَهِمَ عَنْه، و انْقَادَ لِتَوْحِيدِهِ، ومُتَابَعَةِ مَا بُعِثَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. و الْقَلْبُ الْمَيِّتُ الْمُظْلِمُ الَّذِي لَمْ يَعْقِلْ عَنِ اللَّهِ و لا انْقَادَ لِمَا بُعِثَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، و لِهَذَا يَصِفُ سُبْحَانَهُ هَذَا الضَّرْبَ مِنَ النَّاسِ بِأَنَّهُمْ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ، و بِأَنَّهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ لا يَخْرُجُونَ مِنْهَا، و لِهَذَا كَانَت الظُّلْمَةُ مُسْتَوْلِيَةً عَلَيْهِم فِي جَمِيعِ جِهَاتِهِم فَقُلُوبُهم مُظْلِمَةٌ تَرَى الْحَقَّ فِي صُورةِ الْبَاطِلِ، و الْبَاطِلَ في صُورَةِ الْحَقِّ، و أَعْمَالُهم مُظْلِمَةٌ، و أَقْوَالُهم مُظْلِمَةٌ، و أَحْوَالُهُمْ كُلُّهَا مُظْلِمَةٌ، و قُبُورُهم مُمْتَلِئَةٌ عَلَيْهِم ظُلْمَةً.

و إِذَا قُسِمَتِ الْأَنْوَارُ دُونَ الْجِسْرِ لِلْعُبُورِ عَلَيْهِ بَقُوا فِي الظُّلُمَاتِ، وَمُدْخَلُهُمْ فِي النَّارِ مُظْلِمٌ، و هَذِهِ الظُّلْمَةُ هِيَ الَّتِي خُلِقَ فِيهَا الْخَلْقُ أَوَّلًا، فَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ و تعَالَى بِهِ السَّعَادَةَ أَخْرَجَهُ مِنْهَا إِلَى النُّورِ، و مَنْ أَرَادَ به الشَّقَاوَةَ تَرَكَهُ فِيهَا، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ و ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِه مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَال: « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ»، و كَان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و سلَّم يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لَهُ نُورًا فِي قَلْبِهِ و سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ و شَعْرِهِ و بَشَرِهِ و لَحْمِهِ و عَظْمِهِ و دَمِهِ و مِنْ فَوْقِهِ و مِنْ تَحْتِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وعَنْ شِمَالِهِ و خَلْفَهُ و أَمَامَهُ و أَنْ يَجْعَلَ ذَاتَهُ نُورًا، فَطَلَبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ النُّورَ لِذَاتِهِ و لأَبْعَاضِهِ و لحَوَاسِّه الظَّاهِرَةِ و البَاطِنَةِ و لِجِهَاتِه السِّتِّ.

و قَال أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " الْمُؤْمِنُ مُدْخَلُهُ مِنْ نُورٍ، وَمُخْرَجُهُ مِنْ نُورٍ، وَقَوْلُهُ نُورٌ، وَعَمَلُهُ نُورٌ. " و هَذَا النُّورُ بِحَسَبِ قُوَّتِهِ و ضَعْفِهِ يَظْهَرُ لِصَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَمِينِه. فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ نُورُهُ كَالشَّمْسِ، و آخَرُ كَالنَّجْمِ، و آخَرُ كَالنَّخْلَةِ السَّحُوقِ، و آخَرُ دُونَ ذَلِكَ حَتَّى "إنَّ" مِنْهُم مَنْ يُعْطَى نُورًا عَلَى رَأْسِ إِبْهَامِ قَدَمِه يُضِيءُ مَرَّةً و يُطْفِئُ أُخْرَى، كَمَا كَانَ نُورُ إِيمَانِه و مُتَابَعَتِه فِي الدُّنْيَا كَذَلِك، فَهُو هَذَا بِعَيْنِهِ يَظْهَرُ هُنَاكَ لِلحِسِّ وَالْعِيَان .

و قَالَ تَعَالَى: {**و كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**. .} [الشورى: 52] فَسَمَّى وَحْيَهُ و أَمْرَهُ رُوحًا لِمَا يَحْصُلُ به مِنْ حَيَاةِ القُلُوبِ و الْأَرْوَاح. و سَمَّاهُ نُورًا لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الْهُدَى و اسْتِنَارَةَ الْقُلُوب و الْفُرْقَانِ بَيْنَ الْحَقِّ و البَاطِلِ.

و قَد اخْتُلِفَ فِي الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ و جَلَّ:{**وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا**} [الشورى: 52] فقيل: يَعُودُ عَلَى الْكِتَابِ، و قِيلَ: عَلَى الْإِيمَانِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى الرُّوحِ، فِي قَوْلِهِ: {**رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**} [الشورى: 52] فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ أَمْرَهُ رُوحًا و نُورًا و هُدًى، وَلِهَذَا تَرَى صَاحِبَ اتِّبَاعِ الْأَمْرِ و السُّنَّة قَدْ كُسِيَ مِن الرُّوحِ و النُّورِ و مَا يَتْبَعُهُمَا مِنَ الحَلَاوَةِ و المَهَابَة و الجَلَالَة و القَبُول مَا قَدْ حُرِمَهُ غَيْرُهُ، كَمَا قَالَ **الْحَسَنُ**: (إِنَّ المُؤْمِنَ مَنْ رُزِقَ حَلَاوَةً وَمَهَابَةً)،

و قَال جَلَّ و عَلا: {**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** .} [البقرة: 257]، فَأَوْلِيَاؤُهُم يُعِيدُونَهُم إِلَى مَا خُلِقُوا فِيه، مِنْ ظُلْمَةِ طَبَائِعِهِم و جَهْلِهِم و أَهْوَائِهِم، و كُلَّمَا أَشْرَقَ لَهُمْ نُورُ النُّبُوَّةِ و الوَحْيِ و كَادُوا أَن يَدْخُلُوا فِيه مَنَعَهُم أَولِيَاؤُهُم مِنْه و صَدُّوهُم، فَذَلِك إِخْرَاجُهُمْ إِيَّاهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ.

و قَال جَلَّ وَعَلا: {**أَو مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا** .} [الأنعام: 122] فَأَحْيَاهُ سُبْحَانَهُ و تَعَالَى بِرُوحِهِ الَّذِي هُوَ وَحْيُهُ و هُوَ رُوح.

الخَارِجُون عَنْ طَاعَةِ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِم و مُتَابَعَتِهِم يَتَقَلَّبُون فِي عَشْرِ ظُلُمَات: ظُلْمَةُ الطَّبْعِ، و ظُلْمَةُ الجَهْل، وَظُلْمَةُ الهَوَى، وَظُلْمَةُ القَوْل، وَظُلْمَةُ العَمَلِ، وَظُلْمَةُ المُدْخَل، وَظُلْمَةُ المُخْرَج، وَظُلْمَةُ القَبْر، وَظُلْمَةُ القِيَامَة، وَظُلْمَةُ دَارِ القَرَار. فَالظُّلْمَةُ لَازِمَةٌ لَهُم فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثِ.

و أَتْبَاعُ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي عَشَرَةِ أَنْوَارٍ، وَلِهَذِهِ الْأُمَّةِ وَنَبِيِّهَا مِنَ النُّورِ مَا لَيْسَ لِأُمَّةٍ غَيْرِهَا، ولَ لِنَبِيٍّ غَيْرِهِ، فَإِنَّ لِكُلِّ " نَبِيٍّ " مِنْهُمْ نُورَيْنِ، و لِنَبِيِّهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ كُلِّ شَعْرَةٍ مِنْ رَأْسِهِ وَجَسَدِهِ نُورٌ تَامٌّ، كَذَلِكَ صِفَتُهُ و صِفَةُ أُمَّتِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ.

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: {**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**} [الحديد: 28] وَفِي قَوْلِهِ: {**تَمْشُونَ بِهِ**} [الحديد: 28] إِعْلَامٌ بِأَنَّ تَصَرُّفَهُمْ وَتَقَلُّبَهُمُ الَّذِي يَنْفَعُهُمْ إِنَّمَا هُوَ النُّورُ، و أَنَّ مَشْيَهُمْ بِغَيْرِ النُّورِ غَيْرُ مُجْدٍ عَلَيْهِمْ، وَلَا نَافِعٌ لَهُمْ بَلْ ضَرَرُهُ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِه.

التفاضل بين جنس العرب وجنس العجم من كلام شيخ الاسلام ابن تيمية

فإنَّ الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقادُ أنَّ جِنْس العرَب أفضَلُ منْ جنْسِ العجَم، عبرانِيُهُم و سريانِيُهم رُومِيهم وفُرْسِيهم و غَيْرهم .

و أنَّ قُريْشا أفضَلُ العَرَب، وأنَّ بنِي هاشم: أفضَلُ قُرَيش، وأنَّ رسُولَ الله أفضَلُ بنِي هاشم. فهو: أفضَلُ الخَلْق نفْسًا، وأفضَلُهُم نسَبًا .

و ليْسَ فضْلُ العَرَب، ثم قُرَيْش، ثم بنِي هاشم، لمُجَرَّد كوْن النَّبِي منهم، وإنْ كان هذا من الفَضْل، بل هُم في أنفُسِهم أفضَلْ، وبذلك يثبُت لرسُولِ الله أنَّه أفضَلُ نَفْسًا ونسَبًا، و إلاّ لزِمَ الدَّوْر

فإنَّ الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقادُ أنَّ جِنْس العرَب أفضَلُ منْ جنْسِ العجَم، عبرانِيُهُم و سريانِيُهم رُومِيهم وفُرْسِيهم و غَيْرهم .

و أنَّ قُريْشا أفضَلُ العَرَب، وأنَّ بنِي هاشم: أفضَلُ قُرَيش، وأنَّ رسُولَ الله أفضَلُ بنِي هاشم. فهو: أفضَلُ الخَلْق نفْسًا، وأفضَلُهُم نسَبًا .

و ليْسَ فضْلُ العَرَب، ثم قُرَيْش، ثم بنِي هاشم، لمُجَرَّد كوْن النَّبِي منهم، وإنْ كان هذا من الفَضْل، بل هُم في أنفُسِهم أفضَلْ، وبذلك يثبُت لرسُولِ الله أنَّه أفضَلُ نَفْسًا و نسَبًا، و إلاّ لزِمَ الدَّوْر

و لهذا ذكَر أبو محمد حرْب بن إسماعيل الكرماني، صاحب الإمام أحمد، في وصفه للسنة التي قال فيها: " هذا مذهب أئمة العلم وأصحابُ الأثر، وأهل السنة المعروفين بها، المُقتدى بهم فيها، و أدرَكْتُ منْ أدركت من علماء أهل العراق، و الحجَازِ و الشَّام وغيْرهم عليْها، فمنْ خالَفَ شيْئًا منْ هذه المذاهب، أو طعَنَ فيها، أو عابَ قائِلَها فهو مبتَدِعٌ خارِجٌ من الجماعة، زائِلٌ عن منْهَجِ السُّنَّة، وسبيلِ الحقِّ، و هو مذهب أحمد، وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد و عبد الله بن الزبير الحميدي و سعيد بن منصور، و غيرهم ممن جالسنا، وأخذنا عنهم العلم، وكان من قولهم أن الإيمان قول وعمل ونية "، وساق كلاما طويلا....

إلى أنْ قال: " ونعرفُ للعَرَبِ حقَّها وفَضْلَها وسابِقَتِها ونُحِبُّهُم؛ لحديث رسول الله { حبُّ العرَبِ إيمانٌ وبغضُهُم نفَاقٌ} و لا نقول بقَوْل الشُّعُوبية و أراذِلِ الموالِي الذِّين لا يُحبُّون العرب، و لا يُقِرُّون بفَضْلِهم، فإنَّ قولَهُم بدْعةٌ و خِلافو يروى هذا الكلام عن أحمد نفسه في رسالة أحمد بن سعيد الإصطخري عنه إنْ صحَّتْ وهو قولُه، وقوْلُ عامَّة أهْلِ العِلْمِ، ذهبت فرْقَةٌ منَ النّاس إلى أنَّ لا فضل لجنْسِ العرَب على جنْسِ العَجَم. و هؤلاء يُسمُّون الشُّعُوبية، لانتصارهم للشُّعوب، التِّي هي مغايرة للقبائل، كما قيل: القبائل: للعرب، والشعوب: للعَجَم.

و من النّاس منْ قدْ يُفضِّل بعْضَ أنواع العجَم على العرب.

و الغالبُ أنَّ مثل هذا الكلام لا يصدُرُ إلا عنْ نوْعِ نفاق: إمّا في الاعتقاد، وإمّا في العمَلِ المُنْبَعِث عنْ هوى النَّفْس، مع شُبُهات اقتضَتْ ذلك، ولهذا جاء في الحديث: حبُّ العرَب إيمانٌ وبغضُهُم نفاق مع أنَّ الكلام في هذه المسائل لا يكادُ يخلُو عنْ هوى للنفس، ونصيبٍ للشيطان من الطَّرَفين، وهذا مُحرَّمٌ في جميع المسائل.

إنَّ الله قدْ أمر المُؤمنين بالإعتصام بحبْلِ الله جميعًا، ونهاهم عنْ التَّفَرُّق والإختلاف، وأمرَهُم بإصلاح ذاتِ البَيْن، وقال النبي { **مثَلُ المُؤمنين في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتعاطُفِهم، كمثلِ الجَسَدِ الواحد، إذا اشتكى منْه عُضْوٌ تداعى له سائرُ الجَسَد بالحُمَّى والسَّهَر** } .

و قال { **لا تقاطَعُوا ولا تَدَابرُوا ولا تباغَضُوا، ولا تحاسَدُوا وكونُوا عباد الله إخوانًا، كما أمركم الله** } وهذان حديثان صحيحان.

و في الباب من نُصُوص الكتاب والسُّنَّة ما لا يُحْصَى.

من أقوال شيْخُ الإسلام ابن تيمية :

فلمَّا ظهَرَ النِّفَاقُ و البِدَعُ و الفُجُورُ المُخالِفُ لدينِ الرَّسُول سُلِّطتْ عليهم الأعداءُ، فأخرجَت الرُّومُ النَّصارى إلى الشّام والجزيرة مرَّةً بعد مرَّة، و أخذُوا الثُّغُور الشَّامية شيْئًا بعد شيْيء إلى أنْ أخَذُوا بيْت المَقْدِس في أواخرِ المائة الرَّابعة، و بَعْدَ هذا بمُدَّة حاصرُوا دمشق، و كان أهْلُ الشَّام بأسوأ حَالٍ بيْن الكُفَّار النَّصارى و المُنَافقين الملاحدة، إلى أنْ تولّى **نُورُ الدِّين الشهيد**، و قام بما قام به من أمْرِ الإسلام و إظهاره و الجِهَاد لأعدَائِه، ثم استنْجَد به ملُوكُ مِصْر بنُو عُبيد على النصارى فأنْجَدهم، و جرت فصول كثيرة إلى أن أخذت مصر من بني عبيد أخذها صلاح الدين يوسف بن شاذي وخَطَب بها لبني العباس، فمِنْ حينئِذٍ ظهر الإسلام بمِصْر بعد أن مكثت بأيدي المُنافقين المُرتَدِّين عن دِين الإسلام مائَة سنة .

فكان الإيمانُ بالرَّسُول و الجهاد عنْ دِينِه سببًا لخيْر الدُّنيا والآخرة، و بالعَكْس البِدَعِ و الإلحَادِ و مُخَالَفَة ما جاء به سبَبٌ لشرِّ الدُّنيا و الآخرة .فلما ظهَرَ في الشَّام و مِصْر و الجزيرة الإلحادُ و البِدَعُ سلَّط علِيهم الكُفَّار، و لمَّا أقامُوا ما أقامُوه من الإسلام و قهْرِ المُلْحِدِين والمُبْتَدِعين نصرَهُم اللهُ على الكُفَّار تَحقِيقًا لقوله:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ باللَّهِ و رَسُولِهِ و تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ و أَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ و يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ َأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وفَتْحٌ قَرِيبٌ وبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " و كذلك لمَّا كان أهلُ المَشْرِق قائمين بالإسلام كانُوا منْصُورين على الكُفَّار المشركين من التُّرْك والهِنْد والصِّين و غيْرِهم، فلمَّا ظهر مِنْهُم ما ظَهَر منَ البِدَعِ و الإلْحَاد والفُجُور سلَّطَ عليْهم الكُفَّار،

قال تعالى: (**و قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ و لِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ**

وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ و إِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)[الإسراء: 48]).

- ثم قال سبحانه: {**فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا**} [التوبة: 69]

وفي (الذي) وجهان: أحسنهما أنها صفة المصدر، أي كالخوض الذي خاضوه فيكون العائد محذوفا كما في قوله {**مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا**} [يس: 71] و هو كثير فاش في اللغة، و الثاني: أنه صفة الفاعل، أي: كالفريق أو الصنف أو الجيل الذي خاضوه، كما لو قيل: كالذين خاضوا.

وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق، وبين الخوض، لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل، والتكلم به، أو يقع في العمل بخلاف الاعتقاد الحق.

والأول: هو البدع نحوها . و الثاني: فسق الأعمال ونحوها .

والأول: من جهة الشبهات . و الثاني: من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه. و كانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون فهذا يشبه المغضوب عليهم، الذين يعلمون الحق ولا يتبعونه وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم.

و وصف بعضهم **أحمد بن حنبل** فقال: " رحمه الله، عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته البدع فنفاها والدنيا فأباها ".

وقد وصف الله أئمة المتقين فقال: {**و جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**} [السجدة: 24] (3) فبالصبر تُترك الشهوات وباليقين تُدفع الشبهات.ومنه قوله: {**و تَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ**} [العصر: 3] وقوله: {**و اذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ**}[ص: 45] و منه الحديث المرسل عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات**» .

كلام نفيس للامام ابن القيم

توفيقُ الله أساسُ كُلِّ خَيْر: أنْ تَعْلَمَ أنَّ ماشاء الله كان ، ومالم يشأ لم يَكُنْ . فتيقَّنْ حينئذٍ أنَّ الحسنات منْ نعمه ، فتَشْكرَهُ عليْها وتتضرَّع إليه أنْ لا يقطعَها عنْك ، وأنَّ السَّيِّئات منْ خِذْلانه وعُقُوبَتِه، فتبتهلْ إليه أنْ يحُولَ بيْنَك وبينَها، ولايكِلَك في فِعْلِ الحسنَات وتَرْك السَّيِّئات إلى نَفْسِك. وقدْ أجمع العارفون على أنَّ كلَّ خيْر فأصلُه بتوفيقِ الله للعبْدِ وكل شر فأصله خذلانه للعبد فأصلُه بتوفيقِ الله للعبْدِ وكلُّ شرٍّ فأصْلُه خِذْلانُه للعبْدِ . وأجمعُوا أنَّ التَّوفيق أنْ لا يَكِلَك (ايْ يَتْرُكَك) الله إلى نَفْسِك ، و أنَّ الخِذْلان هو أنْ يُخَلِّي بيْنَك و بيْنَ نَفْسِك . فإذا كان كلُّ خَيْرٍ فأصلُهُ التَّوفيقُ وهو بيَدِ الله لا بيَدِ العَبْدِ، فمفتاحُهُ الدُّعاء و الإفتقارُ إليه و صِدْقُ اللُّجُوء والرَّغْبَة والرَّهْبَة إليه . فمتَى أُعْطِى العَبْدُ هذا المفتاح فقد أراد أنْ يَفْتِح له ، ومتَّى أظلَّهُ عنْ المِفْتاح بَقِي بابَ الخيْرِ مُرْتَجا (اي مُغْلَقًا) دُونَه .

قال أمير المومنين **عمر بن الخطاب** إنِّي لا أحْمِلُ همَّ الإجَابَة ، ولكنّ همَّ الدُّعَاء ، فإذا أُلْهِمْتُ الدُّعاء فإنَّ الإجابة معَهُ . وعلى قدْرِ نِيَّةِ العَبْدِ وهِمَّتِه ومُرادُه ورَغْبَتِه في ذلك ، يكُونُ تَوفِيقُه سُبْحانَه وإعانَتَه . فالمَعُونَة منَ الله تَتَنَزَّلُ على العِبَادِ على قَدَرِ هِمَمِهِمْ وثَبَاتِهِم و رَغْبَتِهم و رَهْبَتِهِمْ ، والخُذْلانُ يَنْزِلُ عليهم على حسَبِ ذلك . فالله سُبْحانَه أحْكَمُ الحاكمين وأعلَمُ العالمين ، يضَعُ التَّوفيق في موضِعِه اللاَّئِق به ، والخِذْلان في موضِعِه اللاَّئِق به ، وهو العَلِيمُ الحَكيم. وما أُوتِي منْ أُوتِي إلاّ منْ قِبَلِ إضاعَةْ الشُّكر ، وإهمالِ الإفتِقَارِ والدُّعَاء ، ولا ظَفَرْ منْ ظَفَرْ بمشيئة الله وعونه الا بقيامه الشكر ، وصدق الافتقار والدعاء ، وملاكُ ذلك الصَّبْر ، فإنَّه منَ الإيمان بمنْزِلَة الرَّأس منَ الجَسَدِ ، فإذا قُطِعَ الرَّأسُ فلا بقَاءَ للجَسَدِ ...

و قال:

- ما ضُرِبَ عبْدٌ بعُقُوبَة أعْظَم منْ قَسْوةِ القَلْب
- و البُعْدِ عنْ الله خُلِقَت النَّارُ لإذَابَة القُلُوبِ القاسيَة
- أبْعَدُ القُلُوبِ منَ الله القَلْبُ القاسِي
- إذا قَسَى القَلْبُ قَحَطَت، العَيْنُ قَسْوَةُ القَلْبِ منْ أربعة أشياء إذا جاوزت قدْرَ الحاجة الأكْلُ والنَّوْمُ و الكَلامُ والمُخالَطَة

وصف أخلاق النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام:

قال عمرو بن العاص -رضي الله عنه - : (وما كان أحَدٌ أحبَّ إليَّ من **رسول الله -صلى الله عليه وسلم**- ولا أجلَّ في عيْنِي منه ، وما كنت أُطِيقُ أنْ أملأ عيْنِي منه إجلالاً له، ولو سُئِلْتُ أنْ أصِفَه ما أطقتُ لأنِّي لم أكُنْ أملأ عيني منه) .

وممّا يُحمَدُ عليه -**صلى الله عليه وسلم**- ما جبَلَهُ الله عليه منْ مكارمِ الأخلاق وكرائِمِ الشِّيَم، فإن منْ نظر في أخلاقه وشيمه -**صلى الله عليه وسلم**- علم أنها خيْرُ أخلاقِ الخَلْق، و أكرَمْ شمائِل الخَلق، فإنه -**صلى الله عليه وسلم**- كان أعظم الخلق، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثاً، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالاً، و أعظمُهُم عفواً و مغفِرَةً، و كان لا يزيدُ شدَّةُ الجَهْلِ عليه إلا حِلْماً، كما روى **البخاري** في صحيحه : عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال في صفة رسول الله -**صلى الله عليه وسلم**- في التوراة : (محمد عبدي و رسُولي سمَّيْتُه المُتوكّل، ليس بفظٍّ و لا غليظ، ولا سخَّاب بالأسواق، ولا يدفَعُ بالسَّيِّئة السيئة، ولكن يعفُو و يصفَحُ، و لن أقبِضه حتَّى أُقيمِ به المِلَّة العوجاء بأنْ يقولوا : لا إله إلاّ الله، وأفتَحَ به أعيُناً عُمْياً، وآذاناً صُمًّا، وقُلُوباً غُلْفًا) .

و أرحَمُ الخَلْقِ و أرأفَهُم بهم، وأعظَمُ الخلق نفْعاً لهم في دينِهم ودُنْياهُم، وأفصح خلْق الله وأحسنُهم تعبُّداً عن المعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة الدَّالة على المُرَاد، وأصبَرُهُم في مواطن الصَّبْر، وأصدَقُهم في مواطِنِ اللّقاء، وأوفاهُم بالعهْدِ والذِّمَة، وأعظَمُهُم مكافأة على الجميل بأضعافه، وأشدُّهم تواضُعاً، وأعظَمُهم إيثاراً على نفْسِه، وأشدُّ الخلق ذبّاً عن أصحَابِه، وحمايةً لهُم، ودفَاعاً عنهم، وأقوَمُ الخلق بما يأمُر به، وأتركُهُم لما ينْهَى عنه، و أوصَلُ الخلق لرحِمِه، فهو أحقُّ بقوْلِ القائل:

بَرْدٌ على الأدنى ومرحمةٌ *** *** وعلى الأعادي مارنٌ جَلْدُ

كما قال -**صلى الله عليه وسلم: "ما تركتُ منْ شيْئٍ يقرِّبُكم إلى الجنّة إلاّ و قدْ أمرتُكم به، و لا منْ شيْئٍ يُقرِّبُكم إلى النَّار إلاّ و قدْ نهيتُكُم عنه".**

و قال أبو ذر " لقد تُوفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم و ما طائِرٌ يُقلِّبُ جناحيه في السماء إلاّ ذكرَنا منْه عِلْمًا ".

فضل الصلاة على النبي

أصْلُ الدُّعاء الرَّحمَةُ، فهو من الله رحمة، و من الملائِكة رِقَّة و استدعاءٌ للرَّحمَة من الله لنبِيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و قال **أبو بكر القرشي** : الصلاة من الله لمَنْ دُونِ النّبي رحمَة و للنّبي عليه الصّلاة و السّلام تشريفٌ و زيادة تكرمة.

عن الإمام **أبي العالية** رحمه الله قال: " صلاة الله على رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة ". و عنه رحمَه الله في قوله تعالى:"**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**"، قال: صلاة الله –عز وجلء ثناؤه عليه، وصلاة الملائكة عليه الدعاء".

و قال الإمام **ابن القيم** رحمه الله:" و إنَّما هي ثناؤُه سُبْحانَه، وثناءُ ملائِكَتِه عليه ". وقال أيضًا: "معنى الصَّلاة هي الثَّناء على الرسول صلَّى الله عليه وسلم، والعنايةُ به، و إظهارُ شَرَفِه وفضْلِه وحُرْمَتِه".

و قال: " أنَّ الله سبحانه أمرنا بالصَّلاة عليه عُقَيْب إخباره بأنَّه وملائِكتُه يُصلُّون عليه، و المعنى: أنَّه إذا كان الله و ملائِكتَهُ يُصلُّون على رسوله، فصلُّوا أنْتُم أيْضًا عليه، فأنتُم أحقُّ بأنْ تُصلُّوا عليه وتُسلِّمُوا تسْلِيمًا، لما نالَكُم ببركَة رسالَتِه، و يُمْن سفارَتِه من خيْرِ شرَفِ الدُّنيا و الآخرة".

و قد قال **ابن عباس** رضي الله عنهما:{**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**}، قال يُباركون عليه، و هذا لا يُنافي تفسيرها بالثَّناء و إرادة التَّكريم و التَّعظيم، فإنَّ التَّبريك من الله يتضمَّن ذلك، و لهذا قرن بين الصلاة عليه و التَّبريك عليه، و قالت الملائكة لإبراهيم: {**رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ**}، و قال المسيح: {**و جَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ**}،

قال غيْرُ واحد من السَّلَفْ: مُلِمًّا للخَيْر أينما كُنْت، و هذا جزء المسىَّ، فالمبارك كثير الخير في نفسه الذي يحصله لغيره تعليما وإقدارًا و نُصْحًا و إرادةً و اجتهادا، و الله تعالى متبارك لأنَّ البَركة كُلُّها منه، فعبدُه المُباركُ فيه و جعلَهُ كذلك، و الله تعالى مُتباركٌ لأنَّ البَركة كُلُّها منه، فعبْدُه المُبَارك و هو المتبارك

{**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً**} و قوله: {**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**}.

روى البخاري من صحيحه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى لقيني كعب بنُ عُجْرَةَ فقال: ألا أهْدي لك هديَّة سمعتها من النَّبي - صلى الله عليه وسلّم - فقلتُ: يا رسول الله، كيف الصَّلاة عليكم أهل البيت؟ فإنَّ الله قد علَّمنا كيف نُسلّم قال: «**قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**».

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نُصلّي عليك؟ فقال رسولُ الله صلّى الله عليه و سلّم :

« **قولوا: اللهم صلِّ على محمد و أزواجه و ذريته، كما صلَّيت على آل إبراهيم، و بارك على محمد و أزواجه و ذُرِّيَتِه كما باركت على آل إبراهيم إنَّك حميد مجيد**».

(حديث مرفوع) حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " **مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَنَسِيَ الصَّلاةَ خَطِئَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ". و قَالَ : " **مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ؛ إلاّ كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً! فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ** ".

عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ : " **إنّ أَبْخَلَ النّاسِ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيّ** ".

في معرفة السُّنَن و الأثار **للبيهقي** " **أقربكم منِّي في الجنَّة أكثركم صلاةً علي**".

و قال كذالك :"**ما صلّى عليَّ أحدٌ صلاةً إلاّ صلَّت عليه الملائكةُ ما دام يُصلِّي عليَّ فليقِلَّ عبْدٌ من ذلك أو ليُكثِر**".

و هذا حديثٌ عظيم له فخرٌ جسيم، فإنَّ الصَّلاة بمعنى الاستغفار و الدعاء و هم المعصومون الذّين يفعلون ما يؤمرون المحققة منهم إجابة دعوتهم عند ربِّهم و قبول شفاعتِهم عند ملِكِهم، فأبشِرْ أأيها المصلّي فبصلاة واحدة تَصِلْ بها الى غُفران الزّلاّت و ستْرِ العورات و قضاء الحاجات.

جاء في متْنِ مختصر الامام عبد الرحمان الأخضري في فقه العبادات:

أوَّلُ مَا يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ : تَصْحِيحُ إِيمَانِهِ ثُمَّ مَعْرِفَةُ مَا يُصْلِحُ بِهِ فَرْضَ عَيْنِهِ كَأَحْكَامِ الصَّلَاةِ و الطَّهَارَةِ و الصِّيَامِ. و يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ و يَقِفَ عِنْدَ أَمْرِهِ و نَهْيِهِ و يَتُوبَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْخَطَ عَلَيْهِ. و شُرُوطُ اَلتَّوْبَةِ النَّدَمُ عَلَى مَا فَاتَ، و النِّيَّةُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَى ذَنْبٍ فِيمَا بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْ عُمُرِهِ، و أَنْ يَتْرُكَ الْمَعْصِيَةَ فِي سَاعَتِهَا إِنْ كَانَ مُتَلَبِّسًا بِهَا، و لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُؤَخِّرَ التَّوْبَةَ، و لَا يَقُولُ: حَتَّى يَهْدِيَنِي اللَّهُ فَإِنَّهُ مِنْ عَلَامَاتِ الشَّقَاءِ و الْخِذْلَانِ و طَمْسِ الْبَصِيرَةِ.

و يَجِبُ عَلَيْهِ حِفْظُ لِسَانِهِ مِنَ الْفَحْشَاءِ و الْمُنْكَرِ، و الْكَلَامِ الْقَبِيحِ، و أَيْمَانِ الطَّلَاقِ، و انْتِهَارِ الْمُسْلِمِ و إِهَانَتِهِ، و سَبِّهِ و تَخْوِيفِهِ فِي غَيْرِ حَقٍّ شَرْعِيٍّ.

وَيَجِبُ عَلَيْهِ حِفْظُ بَصَرِهِ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْحَرَامِ، و لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مُسْلِمٍ بِنَظْرَةٍ تُؤْذِيهِ إلا أَنْ يَكُونَ فَاسِقًا فَيَجِبُ هِجْرَانُهُ.

و يَجِبُ عَلَيْهِ حِفْظُ جَمِيعِ جَوَارِحِهِ مَا اسْتَطَاعَ، و أَنْ يُحِبَّ لِلَّهِ و يُبْغِضَ لَهُ و يَرْضَى لَهُ و يَغْضَبَ لَهُ، و يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ و يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ. و يَحْرُمُ عَلَيْهِ الْكَذِبُ و الْغِيبَةُ و النَّمِيمَةُ و الْكِبْرُ و الْعُجْبُ و الرِّيَاءُ و السُّمْعَةُ و الْحَسَدُ و الْبُغْضُ و رُؤْيَةُ الْفَضْلِ عَلَى الْغَيْرِ، و الْهَمْزُ و اللَّمْزُ و الْعَبَثُ وَالسُّخْرِيَةُ، و الزِّنَا، و النَّظَرُ إِلَى الْأَجْنَبِيَّةِ، و التَّلَذُّذُ بِكَلَامِهَا، و أَكْلُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ و الْأَكْلُ بِالشَّفَاعَةِ أَوْ بِالدِّينِ و تَأْخِيرُ الصَّلَاةِ عَنْ أَوْقَاتِهَا. و لَا يَحِلُّ لَهُ صُحْبَةُ فَاسِقٍ، و لَا مُجَالَسَتُهُ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ، و لَا يَطْلُبُ رِضَا الْمَخْلُوقِينَ بِسَخَطِ اَلْخَالِقِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {**و اللَّهُ و رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ**}. و قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**».

و لا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلًا حَتَّى يَعْلَمَ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِ و يَسْأَلَ الْعُلَمَاءَ و يَقْتَدِيَ بِالْمُتَّبِعِينَ لِسُنَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. الَّذِينَ يَدُلُّونَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، و يُحَذِّرُونَ مِنَ اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ. و لَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ مَا رَضِيَهُ الْمُفْلِسُونَ الَّذِينَ ضَاعَتْ أَعْمَارُهُمْ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَا حَسْرَتَهُم و يا طُولَ بُكَائِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِاتِّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّنَا وَشَفِيعِنَا وَسَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ .

من أقوال ابن القيم الجوزية عشرةُ أشياء ضائعة لا يُنتفعُ بها:

- علمٌ لا يُعملُ به.
- وعملٌ لا إخلاص فيه ولا اقتداء.
- و مالٌ لا يُنفقُ منه؛ فلا يستمتعُ به جامعُهُ في الدُّنيا ولا يقدِّمُهُ أمامه إلى الآخرةِ.
- و قلبٌ فارغٌ من محبّةِ الله والشوق إليه و الأنس به.
- و بدنٌ معطّلٌ من طاعتهِ و خدمتهِ.
- و محبّةٌ لا تتقيدُ برضاءِ المحبوبِ وامتثالِ أوامرهِ.
- و وقتٌ معطّلٌ عن استدراكِ فارطٍ أو اغتنامِ برٍّ وقُربةٍ.
- و فكرٌ يجولُ فيما لا ينفعُ.
- و خدمةُ من لا تقرِّبُك خدمتهُ إلى الله ولا تعودُ عليكَ بصلاحِ دنياك.
- و خوفُكَ ورجاؤك لمن ناصيتُهُ بيدِ الله وهو أسيرٌ في قبضتهِ، ولا يملكُ لنفسهِ ضرًّا و لا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً.

و أعظم هذه الإضاعات إضاعتان هما أصلُ كلِ إضاعةٍ:

إضاعةُ القلبِ وإضاعةُ الوقت: فإضاعةُ القلبِ من إيثارِ الدّنيا على الآخرة. وإضاعةُ الوقت من طولِ الأمل.

فاجتمع الفسادُ كلهُ في إتباع الهوى وطولِ الأمل، والصلاحُ كلهُ في إتباعِ الهدى والاستعداد للّقاءِ.

العجَبُ ممَّنْ تعرُضُ له حاجةٌ فيصرف رغبتَهُ وهمَّتَه فيها إلى الله ليقضيَها له. و لا يتصدَّى للسؤال لحياةِ قلبِه من موتِ الجَهْل و الإعرَاضِ و شفائِه من داء الشَّهواتِ و الشُّبُهات و لكن إذا مات القلْبُ لم يشعُرْ بمعصيتِه.

قال كذالك في تقوى الله و حسن الخلق:

جمع النبي صلّى الله عليه وسلّم بيْن تقوى الله وحُسْنُ الخُلُق ؛ لأنّ تقوى الله يُصلِحُ ما بيْن العبْدِ وبيْن ربِّه وحسْنُ الخُلُق يُصلِحُ ما بينه وبين خلقِه فتقوى الله تُوجِبُ له محبَّة الله وحسْنُ الخُلُق يدعُو النَّاس إلى محبَّتِه.

و قال:

قال الله تعالى: {**والدِّين جاهدوا فينا لنهديّنهم سبُلَنا**} العنكبوت علق سُبْحانَه الهداية بالجِهاد، فأكملُ النَّاس هدايةً أعظمهُم جهادًا، و أفرَضُ الجِهاد جهادُ النَّفْس، و جهَادُ الهوى، و جهَادُ الشَّيطان، و جهاد الدُّنيا فمَنْ جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سُبُل رضاه المُوصِلَة إلى جنَّتِه، و منْ ترَك الجِهاد فاتَهُ من الهُدى بحسْبِ ما عطَّل منَ الجِهَاد.

قال **الجُنَيد**: والدِّين جاهدوا أهواءَهم فينَا بالتَّوبة لنهدينَّهم سُبُل الإخلاص، و لا يتمكنّ من جهاد عدُوِّه في الظَّاهر الاَّ منْ جاهَدَ هذه الأعداء باطِنا، فمن نُصِر عليها نُصِرَ على عدوِّه، و من نُصِرَتْ عليه نُصِرَ عليه عَدُوُّهُ.

شكوى الجاهل من الله

الجاهلُ يشكو الله الى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فانَّه لو عرف ربَّه لما شكاه، ولو عرف النَّاس لما شكا إليهم. ورأى بعضُ السّلف رجُلاً يشكو إلى رجل فاقتَه وضرورتَه، فقال: يا هذا، والله ما زِدْت على أنْ شكوت من يرحَمُك إلى منْ لا يرحمُك، وفي ذلك قيل:

واذا شكوتَ إلى ابن آدم انَّما   تشكو الرَّحيم إلى الدِّي لا يرحم

والعارفُ انّما يشكو إلى الله وحده. و أعرَفُ العارفين منْ جعلَ شكواه إلى الله منْ نفْسِه لا منَ النَّاس، فهو يشكو من مُوجِبات تسليطِ النَّاس عليه، فهو ناظِرٌ الى قوله تعالى: { **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم**}[الشورى، 30]، و قوله:{**و ما أصابك من سيِّئة فمِنْ نفْسِك**} [النساء، 79]،

و قوله :{ **أو لما أصابتْكُم مصيبة قدْ أصبتُمْ مثليها قُلْتُم أنّى هذا قُلْ هو من عنْدِ أنفُسِكم**} [آل عمران، 165].

فالمراتب ثلاثة: أخسُّها أنْ تشْكُو الله إلى خلقِه، و أعلاها أنْ تشْكُو نفسك إلى الله، و أوسَطُها أنْ تشكو خلقَه إليه.

مراتب أهل الآخرة

قال بشْرُ بن الحارث: أهْلُ الآخرة ثلاثة: عابدٌ و زاهدٌ و صِدِّيق، فالعابِدُ يعبُدُ الله مع العلائق، و الزَّاهدُ يعبُدُه على ترْك العلائِق، و الصِّديقُ يعبُدُه على الرِّضا و المُوافقة، إنْ أراه أخذ الدنيا أخذها و إن أراه ترْكَها تَرَكَها.

علامَةُ صحَّة الإرادة

علامَةُ صحَّة الإرادة أنْ يكون همُّ المُريد رضا ربِّه واستعدادُه للقائِه، و حزنُه على وقت مرَّ في غيْرِ مرضاتِه، وأسفِه على قُرْبِه والأُنْسُ به. و جمَاعُ ذلِك أنْ يُصبِحَ و يُمْسي و ليْس له همٌّ غيرُه.

قال الامام ابن القيم الجوزية :

أقربُ الوسائل إلى الله مُلازمةُ السُّنَّة و الوقُوفُ معها في الظَّاهر و الباطن و دوامُ الإفتقار إلى الله، و إرادةُ وجهه وحده بالأقوال و الأفعال و ما وصَلَ أحَدٌ إلى الله إلاّ من هذه الثلاثة و ما انقطعَ عنه أحَدٌ إلاّ بانقطاعه عنها أو عنْ أحدِها.

توقير الله تعالى:

قال **ابن القيّم** رحمه الله تعالى: من أعظم الظّلم والجَهل أنْ تطلُب التّعظيم والتّوقير لك من النّاس وقلبك خالٍ من تعظيمِ الله و توقيره، فإنّك تُوقّر المخلوق و تُجلّه أن يراك في حال لا توقّر الله أنْ يراك عليها، قال تعالى: **ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلّهِ وَقاراً**، أي لا تُعامِلُونه مُعامَلَة من تُوقِّرُونه، و التّوقير: التّعظيم.

و منه قوله تعالى و**تُوَقِّرُوهُ** قال **الحسن** ما لكم لا تعرفون لله حقًّا ولا تشكرُونَه؟ و قال **مجاهد** لا تُبالون عظمَة ربِّكم، و قال **ابن زيد** لا ترَوْن لله طاعَة، و قال **ابن عباس** لا تعرِفُون حقَّ عظمَتِه و هذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد وهو أنَّهم لو عظّموا الله وعرفوا حقّ عظمَته وَحَّدُوه وأطاعوه وشكرُوه، فطاعتُه سبحانه واجتنَابُ معاصِيه، و الحياءُ منه بحسَبِ وقارِه في القلب. و لهذا قال بعض السّلف: ليَعْظُم وقارُ الله في قلْبِ أحدِكِم أنْ يَذْكُرَه عندما يُسْتَحى منْ ذكرِه، فيَقْرَن اسمَه به كما تقول:قبّح اللهُ الكلبَ و الخنزير والنّتن و نحو ذلك، فهذا من وقارِ الله.

و من وقاره أن لا تعدِلْ به شيْئًا من خلْقِه، لا في اللّفظ، بحيث تقول: والله و حياتك، مالي إلا الله و أنت، و ما شاء الله و شئت، ولا في الحبّ والتّعظيم والإجلال، ولا في الطّاعة، فتُطيعُ المخلوقَ في أمرِه و نهيه كما تطيع الله، بل أعظَمْ، كما عليه أكثرُ الظّلمَة و الفجَرَة، و لا في الخوف والرّجاء ويجعلُهُ أهوْنَ النَّاظرين إليه... و لا يستهِينُ بحقّه... و يقولُ هو مبنى على المُسامَحَة و لا يجعلُهُ على الفَضْلَة ويُقدِّم حقَّ المَخلُوقِ عليه... و لا يكونَ اللهُ و رسولُهُ في حدٍّ وناحية والناسُ في ناحيةٍ وحدّ، فيكون في الحدِّ والشّقِّ الذي فيه الناس دُونَ الحدِّ والشّقّ الذي فيه الله و رسوله و لا يُعْطِي المخلوق في مُخاطَبَتِه قلْبه ولُبِّه ويُعطِي اللهَ في خِدْمَتِه دنَه ولسانَه دون قلبِه ورُوحِه... و لا يجعلْ مُرادَ نفْسِه مُقدما على مُرَادِ ربِّه فهذا كلُّه منْ عدَمِ وقارِ الله في القَلْبِ و منْ كان كذلك فإنَّ الله لا يُلْقِي له في قُلُوب النَّاس وقارًا ولا هيبَةً بلْ يُسْقِطُ وقاره و هيبته في قلوبهم و إن وقَّروه مخافة شرِّه فذاك وقارُ بُغْضٍ لا وقارَ حُبٍّ وتعظيم، و منْ وقارِ الله أنْ يستحي من إطّلاعه على سرِّه وضميره فيرى فيه ما يكرَه، و من وقاره أنْ يستحي منه في الخلوَة أعظم ممَّا يستحي من أكابرِ النَّاس. و **المقصودُ**: أنَّ منْ لا يُوقِّر الله و كلامَه وما آتاه من العِلْم والحكمة كيف يَطلُبُ من النَّاس توقِيرَه و تعظيمَه.

باب ما جاء في التطير

عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا عدْوَى و لا طيْرة، ويُعْجِبُنِي الفألُ، قالوا: وما الفَأْل؟ قال: الكلِمَةُ الطَّيِّبَة ".

لا **عدوى**: لا عدوى تُؤثّر بنَفْسِها.

ولا **طيرة**: لا وجود لتأثير الطَّيْرَة، و التَّطيُّر هو ما كان يعتقده العرب من **التشاؤم** بأسماء الطيور وألوانها وأصواتها وغير ذلك.
الفأل: هو ما يحدث للإنسان من الفرح والسرور من صوت يسمعه، أو حال تجري عليه يؤمل منها الخير ونحو ذلك.

الشرح الإجمالي:

لمَّا كان الخيْرُ والشَّرُّ كلُّه مُقدَّرٌ منَ الله نفَى النَّبِيُّ صلّى الله عليه وسلم في هذا الحديث تأثِيرَ العدوى بنفْسِها، ونفَى وُجُودَ تأثير الطَّيْرَة، وأقرَّ التفاؤل واستحسنه؛ وذلك لأن التفاؤل حُسْنُ ظنٍّ بالله، و حافزٌ للهمم على تحقيق المراد، بعكس التَّطيُّر والتشاؤم.

و فيه الفوائد التالية:

1 نفي تأثير العدوى بنفسها.

2 نفي تأثير الطيرة بالكلية.

3 استحباب التفاؤل.

من أقوال الحكماء و الزهاد

قال جعفر الخلدي: خدمت ستمائة شيخ، فما وجدتُ منْ شفى قلْبِي من أربع مسائل، حتّى رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم في النَّوْم فقال لي: سلْ عن مسائِلك؟

فقلت: وما التَّوحيد؟

فقال: هو ترْكُ التفكر في ذاتِ الله، فكلُّ ما أتى به الوَهْمُ أو جلاه الفهْمُ فللّه عزّ و جلّ بِخِلاف ذلِك،

فقلتُ: و ما التَّصوُّف؟

فقال: ترْكُ الدَّعاوي وكتمَانُ المعاني.

فقلتُ: يا رسول الله و ما العقْلُ؟ قال أدناهُ ترْكُ الدُّنيا و أعلى العقل التّفكُّر في ذاتِ الله تعالى.

فقلتُ: وما الفَقْرُ؟ فقال: هو سرٌّ من أسرارِ الله يُودِعُه فيمن يشَاء مِنْ عبادِه فمَنْ كتَمَهُ فهو من أهلِه وزاده الله منه، ومنْ باحَ به نفثَهُ الله عنه .

قال **أبو عبد الله القُرَشي** رحمَه الله منْ أشهدَهُ الحقُّ حُكْمَهُ في خلْقِه رأى كُلَّ أحَدٍ مؤهَّلاً لما هو فيه و قال منْ شكَرَ الله في النِّعَمِ لطفَ به في المِحَن. و قال لكُلِّ شيْئٍ ثمرَة و ثمْرَةُ العِلْم العمَلُ به. و لكَلِّ شيْئٍ بركة و بركَةُ العمَلِ عدَمُ الإلتفاتِ إليه.
و قال عليْك بلذّكْر فإنَّه صاحِبٌ لا يُسْلِمُك لمِحنَة. و قالَ منْ عقَلَهُ تصريفُ الحقِّ لم ير أحَدًا ينفعه و لا يُؤْذيه. و قالَ منْ إتّقى الله في السِّرِّ حفِظَه في العلانية و قالَ إذا لم يغْلِب حُزْنُ المُريدِ على فَرَحِه كان خُسرانُه أكثَرَ من ربْحِه. و قالَ منْ لم يكُنْ كلامه مؤيَّدًا بالكتاب و السُّنَّة فهو عليه فِتْنة. و قالَ مِنْ حيثُ تُعامِل الحقَّ يُعامِلُك به إنْ عاملتَهُ بالأسبابِ عامَلَك بها و إنْ عاملتَهُ بالتَّرْك كان لهُ عِوَضًا منْ كُلِّ سبَب. و قالَ منْ لم ير لنفْسِه حقًّا جعَلَ الله تعظيمَهُ في صدُور الخَلْق. و قالَ إذا اتَّصفَ عبْدٌ بالصِّدْق فلا يُلهَم لشيْئٍ إلاّ وصلَه . و قالَ إذا أشكَلَ عليْك شيْئٌ منْ أمْر دُنياك أو آخِرَتك فاخرُج فيه عنْ وجودِك و ارجَعْ فيه إلى الله تبارَك و تعالى تر بركاتِه بفَضْل الله و ينجَلي لك ذلك الأمْرُ. و قالَ إذا رأيْتَ الحقَّ أقامك في خِدْمَتِه فاعلَم أنَّ الوُجُود أقام في خِدْمَتِك. و قالَ منْ لمْ يرحم الخَلْقَ لم يرحمْهُ الحقُّ. دليلُ صُحْبَتِه لك حِفْظُ أوقاتِك عليْك.

مِنَ الإيمان بالله الصَّبْرُ على أقدار الله

و قول الله تعالى : (**و من يؤُمِن بالله يهْدِ قلْبَه**) .

قال علقمة : هو الرَّجُل تصيبُه المُصيبة فيعلَمْ أنَّها من عند الله، فيرضى و يُسَلِّم.

و في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطَّعْنُ في النَّسَب، و النِّياحة على الميِّت). ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً : (ليس منّا منْ ضرَبَ الخُدُود، وشقَّ الجُيُوبَ، ودعا بدعوى الجاهِلِيَة).

و عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أراد الله بعبْدِه الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبْدِه الشر أمسك عنْه بذنْبِه حتَّى يُوافى به يوْم القيامة) ، وقال النبي صلى الله عليه و سلم: (إنَّ عظَمَ الجزاء مع عظَم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحبَّ قوْماً ابتلاهُم، فمن رضِيَ فله الرِّضَي، ومن سخِطَ فله السُّخَطُ) حسَّنَه الترمذي.

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية التغابن.

الثانية : أنّ هذا من الإيمان بالله.

الثالثة : الطَّعْنُ في النسب.

الرابعة : شدَّة الوعيد فيمن ضرَبَ الخدود وشقَّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية.

الخامسة : علامة إرادة الله بعبده الخير.

السادسة : إرادة الله به الشَّرّ.

السابعة : علامة حبُّ الله للعبد.

الثامنة : تحريم السُّخْط.

التاسعة : ثواب الرِّضي بالبلاء .

الإجمال في طلَبِ الرِّزْق

جمع النَّبِي فِي قَوْله "**فاتَّقُوا الله و أجملوا فِي الطّلب**" بين مصالح الدُّنْيَا وَالْآخِرَة . ونَعِيمُها و لذَّاتُها إنَّمَا يُنَال بتقوى الله.

و راحةُ القلب و الْبَدَن و ترْكِ الإهتمام والحرْصِ الشَّديد و التَّعَب و العِنَاد و الكدِّ والشَّقَاء فِي طلَبِ الدُّنْيَا إِنَّمَا يُنَال بالإجمال فِي الطَّلب فَمنْ اتَّقى الله فَازَ بلذة الْآخِرَة و نَعِيمهَا و منْ أجملَ فِي الطّلب استراح من نكَدِ الدُّنْيَا و همومها فَال لله الْمُسْتَعَان

قد نادت الدُّنْيَا على نَفسهَا ... لَو كَانَ فِي ذَا الْخلق منْ يسمع

كم واثقٍ بالعيْش أهلكته ... و جامعٍ فرَّقت مَا يجمع

(الفوائد لابن القيم).

فائِدَة جليلة فِي الْقدر

رَبٌّ ذُو إرَادَة أمر عبدا ذَا إرَادَة فان وفّقه و أَرَادَ من نَفسه أن يُعينهُ و يلهمه فعل مَا أمر بِهِ و إنْ خذله و خلاّه و إرادته و نَفسه و هُوَ من هَذِه الحثيثة لَا يخْتَار إِلَّا مَا تهواه نَفسه وطبعه فَهُوَ من حَيْثُ هُو إنْسَان لَا يُرِيد إِلَّا ذَلِك و لذَلِك ذمّه الله فِي كِتَابه من هَذِه الحثيثة و لم يمدحه إِلَّا بِأَمْر زَائِد على تِلْكَ الحثيثة و هُو كَونه مُسلما و مؤمنا وصابرا و مُحْسِنًا وشكُورًا وتَقِيًّا و بَرًّا و نَحْو ذَلِك و هَذَا أمر زَائِد على مجرّد كَونه إنْسَانا و إرادته صَالِحَة و لَكِن لَا يَكْفِي مجرّد صلاحيتها إنْ لم تؤيد بِقدر زَائِد على ذَلِك و هُوَ التَّوْفِيق كَمَا أنه لَا يَكْفِي فِي الرُّؤْيَة مجرّد صَلَاحِية الْعين للإدراك إنْ لم يحصل سَبَب آخر من النُّور الْمُنْفَصِل عَنْهَا. **(الفوائد لابن القيم).**

من كتاب "بداية الهداية" للامام أبي حامد الغزالي

القول في اجتناب المعاصى

إعلَمْ أنَّ للدِّين شطرَيْن، أحدهُما: ترْكُ المناهي، و الآخَرُ: فعْلُ الطَّاعات.. و تَرْكُ المناهي هو الأشدُّ؛ فإنَّ الطَّاعات يَقْدِرُ عليها كل واحد، و تَرْكُ الشَّهوات لا يقدِرُ عليه إلا الصدِّيقون، فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المهاجر من هجر السوء، و المجاهد من جاهد هواه). و اعلَمْ أنَّك إنَّما تَعصِي الله بجوارحِك، وهي نعمَةٌ من الله عليك و أمانَةٌ لديْك، فاستعانَتُك بنِعْمَة الله على معصيَتِه غايَةُ الكُفْران، وخِيَانَتُك في أمانَة استودَعَها اللهُ غايَة الطُّغيان؛ فأعضاؤُك رعاياك، فانظر كيْف ترْعاها؛ فكلُّكُم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عنْ رعيَّتِه. وأعْلَم أنَّ جميع أعضائُك ستَشْهَدُ عليْك في عرصَاتِ القيّامة بلِسَان طلْقٍ ذلْقٍ، تفضَحُك به على رؤُوس الخَلائِق، قال الله تعالى: (**يوْمَ تشهد عليهم ألسِنَتِهم وأيديهم و أرْجُلِهم بما كانوا يعملُون**)، وقال الله تعالى: (**اليَوم نَخْتِمُ على أفواهِهِم وتُكلِّمُنا أيْدِيهم و تشْهَدُ أرجُلَهُم بما كانُوا يَكْسِبُون**). فاحفَظْ يا مسكين جميعَ بدَنِك منْ المعاصى، وخُصُوصًا أعضاءُك السَّبعة؛ فإن جهنَّم لها سبْعَةُ أبوابٌ لكُلِّ باب منهم جُزْءٌ مَقْسُوم، ولا يتعيَّنْ لتِلْك الأبواب إلا منْ عصا الله تعالى بهذه الأعضاء السَّبْعة، وهي: العَيْن، و الأذن، واللّسَان، و البَطْنْ، و الفَرَجْ، و اليَدِ، و الرِّجْل.

آداب العين

أمّا العَيْن: فإنّما خُلِقَت لك لتَهْتَدِي بها في الظُّلُمات، و تَسْتَعين بها في الحاجات، وتَنْظُرَ بها إلى عجائِبِ مَلَكُوت الأرْضِ والسَّموات، وتَعْتَبِر بما فيها من الآيات؛ فاحفَظْها عنْ أربع: أنْ تنْظُر بها إلى غيْر مُحرَّم، أو إلى صورة مليحة و لا بشهوَة نَفْس، أو تَنْظُر بها إلى مُسْلِم بعيْن الإحتِقَار، أو تَطَّلِع بها على عيْبِ مُسْلِمٍ.

آداب الأذن

و أمّا **الأذُن** : فاحفَظْها عنْ أنْ تُصْغِي بها إلى البِدْعة، أو الغيْبَة، أو الفُحْش، أو الخَوْض في الباطل، أو ذِكْرِ مساوىءِ النَّاس؛ فإنَّما خُلِقَتْ لك لتَسْمَع بها كلام الله تعالى، و سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وحكمَةَ أولِيَائِه، و تتوصَّلْ باستفادَة العِلْم بها إلى المَلِكِ المُقِيم والنَّعيم الدَّائم في جِوار ربِّ العالمين. فإذا أصْغَيْت بها

إلى شيْيءٍ من المكاره صار ما كان لك عليْك، وانقلّبَ ما كان سبَبَ فوْزك سبَبَ هلاكِك، وهذا غايَة الخُسْران. ولا تظنُّ أنَّ الإثمَ يختَصٌّ به القائِلُ دُونَ المُسْتَمِع؛ ففي الخَبَر: (أنَّ المُسْتَمِع شَرِيكُ القائِلِ و هو أحَدُ المُغتابين).

آداب اللسان

و أما **اللسان**: فإنَّما خُلِقَ لتُكْثِرَ به ذِكْر الله تعالى و تلاوة كتَابه، و تُرشِدنَّ به خَلْق الله تعالى إلى طريقه، وتُظهِر به ما في ضميرك من حاجات دينِك ودُنياك. فإذا استعملتَه في غيْرِ ما خَلَقَ له، فقد كفَرْت نعمة الله تعالى فيه، وهو أغْلَبُ أعضائِك عليْك وعلى سائرِ الخَلْق، و لا يكبُّ النَّاس في النَّار على مناخِرِهم إلاّ حصائِدُ ألسِنَتِهم. فاستظْهِرْ عليه بغايَة قُوَّتِك حتَّى لا يَكُبَّك في قَعْرِ جهنَّم، ففي الخبَرِ:
(إنَّ الرَّجُل ليتَكلَّم بالكَلِمَة ليُضحِك بها أصحابَه فيهوي بها في قَعْرِ جهنَّم سبعين خريفًا)، و روى أنَّه قُتِل شهيدٌ في المعركة على عهْد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قائل:ن هنيئًا له الجنة، فقال: صلى الله عليه وسلم: (و ما يُدْرِيك لعلَّه كان يتَكلَّم فيما لا يَعنِيه، و يبْخَل بما لا يُغْنِيه). فاحفظ لسانك من ثمانية:

الأول الكذب ثم إنَّك إذا عُرِفت بذلك سَقَطَت عدالتُك والثِّقة بقَوْلِك، و تزدريكَ الأعيُنُ و تَحتَقِرُك. و إذا أرَدْت أنْ تَعرفَ قُبْحَ الكَذِبِ منْ نَفْسِك، فانظُر إلى كَذِبِ غيْرِك، وعلى نَفْرَة نَفْسِك عنه، و استحقارِك لصاحِبِه واستقبَاحِك له. و كذلك فافعل في جميع عُيُوب نَفْسِك؛ فإنَّك لا ترى قُبْحَ عُيُوبِك من نَفْسِك، بل منْ غَيْرِك، فما استقبحتَهُ منْ غيْرك يَستَقْبِحُه غيْرُك مثْلك لا محالة؛ فلا تَرْضَ لنفسك ذلك.

الثاني الخُلْفُ في الوَعْد ؟ فإيَّاك أنْ تعِدَ بشيْيءٍ و لا تفِيَ به، بل ينبَغِي أنْ يكونَ إحسانُك إلى النَّاس فعْلاً بلا قول، فإنْ اضطرَرْت إلى الوَعْد، فإيَّاك أنْ تُخْلِف إلاّ لعَجْزٍ أو ضرورة؛ فإنَّ ذلك من امارات النفاق وخبائث الأخلاق، قال النَّبِي صلّى الله عليه وسلم: (ثَلاثٌ منْ كُنَّ فيه فهو منافقٌ و إن صام و صلى: من إذا حدَّث كذب، وإذا وَعَدَ أخْلفَ، وإذا أُؤتُمِنَ خانَ).

الثالِثُ الغَيْبَة فاحفَظْ لسانَك عنْها، والغيْبَةُ أشدُّ من ثلاثين زَنْيَة في الإسلام. كذلك ورَد في الخَبَر.

و معنَى **الغَيْبَة** : أنْ تَذْكُر إنسانًا بما يكرَهُه لو سمِعَه، فأنت مُغْتَابٌ ظالِمٌ و إنْ كُنْت صادِقًا. و إيَّاك وغَيْبَة القُرَّاء المُرائين، وهو أنْ تَفْهم المقصود منْ غيْر تصريحِ فتقول: أصلَحَهُ الله فقد ساءَنِي وغمَّنِي ما جرى عليه، فنسأل الله تعالى أنْ يُصلِحنا وإيَّاه؛ فإنَّ هذا جمَعَ بيْنَ خبيثيْن، أحدهما: الغيبة إذا حصل به التفهم، والآخر: تزْكِيَة النَّفْس والثَّناء عليها بالتَّجريح لغيْرك و الصَّلاحُ لنفسك. ولكنّ إنْ كان مقصودُك منْ قولك: أصلحَهُ الله الدُّعاء؛ فادْعُ له في السِّرِّ. وإنْ اغتمَمت بسببِه، فعلامَةُ أنَّك لا تريدُ فضيحتَه واظهَارَ عيْبه، وفي إظهارك الغمَّ بعيْبه إظهَارُ تعْييبِه. ويكفيك زاجرًا عن الغَيْبَة قولُه تعالى: (**و لا يَغتَب بَعضُكُم بَعضًا، أيُحِبُ أحَدُكُم أن يَأكلَ لَحمَ أخيهِ مَيْتا فكَرِهتُموه**).

فقد شبَّهك اللهُ بآكل لحْمِ الميْتَة؛ فما أجدرَك أن تحتَرز منْها! ويمنَعُك عن الغَيْبة أمْرٌ لو تفكَّرْت فيه و هو أنْ تَنْظُر في نفسك، هل فيك عيْبٌ ظاهِرٌ أو باطن؟، وهل أنت مقارف معصية سرًّا أو جَهْرًا؟ فإذا عَرفْت ذلك منْ نفسك، فاعلَمْ أنَّ عجزه عن التنزه عمّا نسبْتُه إليه كعجِزك، وعُذْرُه كَعُذْرك. وكما تكره أنْ تُفْتَضَحَ و تُذْكَرَ عُيُوبَك، فهو أيْضًا يَكرَهُه؛ فإنْ سترْتَه سترَ الله عليْك عيُوبَك، و إنْ فضَحْتَه سلَّطَ اللهُ عليك ألسِنَةً حِدَادًا، يُمزِّقون عَرْضَك في الدُّنيا، ثم يفضحُك الله في الآخرة على رُؤُوس الخَلائِق يوْم القيامة.

و إن نظرت إلى ظاهرك وباطنك، فلم تَطَّلِع فيهما على عيْبٍ و نُقْصٍ في دِينٍ و لا دُنْيا، فاعلَمْ أنَّ جَهْلك بعيُوبِ نَفْسِك أقبَحُ أنواع الحمَاقة، ولا عيْبَ أعظم من الحُمْق. و لو أراد اللهُ بك خيْرًا لبصَّرَك بعيُوبِ نَفْسِك، فرؤيتك نفسَك بِعيْن الرِّضا غايةُ غباوَتِك و جَهْلِك. ثم إنْ كُنْت صادِقًا في ظنِّك فاشْكُر الله تعالى عليه و لا تُفْسِدْهُ بثَلْبِ النَّاس، و التَّمَضْمُض بأعرَاضِهم ؛ فإنَّ ذلك منْ أعظَمِ العُيُوب.

الرابع المراء و الجدال و مُنَاقشَةُ النَّاس في الكلام فذَلِك فيه إيذاءٌ للمُخاطَبْ و تجْهيلٌ له، وطَعْنٌ فيه، و فيه ثنَاءٌ على النَّفْس و تزْكِيَةٌ لها بمزيدٍ الفِطْنَة و العِلْم، ثم هو مُشَوِّشٌ للعيْش؛ فإنَّك لا تُماري سفِيهًا إلاّ و يُؤْذِيك، ولا تُمَاري حلِيمًا إلاّ و يَقْلِيك ويَحْقِدُ عليْك؛ فقَدْ قال صلى الله عليه وسلم: (منْ تَرَك المِرَاء و هو مُبْطِلٌ بنى الله له بيْتًا في رَبْضِ الجَنَّة، و منْ تَرَك المِرَاء وهو مُحِقٌّ بنى اللهُ له بيْتًا في أعلى الجنَّة).

و لا ينْبَغِي أنْ يخْدَعك الشيطان ويقول لك: أظْهِرْ الحقَّ و لا تُدَاهِن فيه، فإنَّ الشَّيْطان أبَدًا يستَجِرُّ الحمْقى إلى الشَّرِّ في معرَضِ الخَيْر، فلا تَكُنْ ضُحْكَةً للشيطان فيَسخَرْ منْك، فاظهارُ الحقَّ حَسَنٌ مع منْ يقبَلْهُ منْك، و ذلك بطرِيقِ النَّصيحة في الخُفْيَة لا بطَرِيقِ المُمَاراة. وللنَّصِيحَة صِفَةٌ و هيئة، و يحتَاجُ فيها إلى تلطُّف و إلاَّ صارَت فضِيحَة، وكان فسادُها أكثَرْ منْ صَلاحِها. و منْ خالَط مُتَفَقِّهَة العَصْر غَلَب على طَبْعِه المِرَاء و الجِدَال، و عسُرَ عليه الصَّمْتُ، إذْ ألْقَى إليه عُلَمَاء السُّوءِ أنَّ ذلِك هو الفَضْلُ، و القُدْرَةُ على المَحَاجَّة و المُنَاقَشَة هو الذِّي يُمْتَدَحُ بِهِ؛ فَفِرّ مِنْهُم فرَارَك مِنَ الأسَد، و اعلَمْ أنَّ المِرَاء سبَبُ المَقْتِ عنْد الله و عنْدَ الخَلْق.

الخامس تزكية النفس فقدْ قال الله تعالى: **(فَلا تُزَكوا أنفُسَكُم هَو أعلَمُ بِمَن اِتقى)**، و قيل بعض الحكماء: مالصِّدْقُ القبيح؟ فقال: ثَنَاءُ المَرْءِ على نفْسِه. فإيَّاك أنْ تتعوَّدَ ذلك، وأعْلَم أنَّ ذلك يُنْقِص مِنْ قَدْرِك عنْد النَّاس، ويُوجِبُ مقتَك عنْد الله تعالى. فإذا أرَدْت أنْ تَعْرف أنَّ ثنَاءَك على نَفْسِك لا يَزِيدُ في قدْرِك عنْد غيْرِك، فانْظُر إلى أقرَانِك إذا أثنوا على أنفُسِهم بالفَضْلِ و الجاه و المال كيْف يستنكرِهُ قلبُك عليْهم، ويَستثْقِلُه طبْعُك، وكيْف تذمُّهُم عليه إذا فارَقتَهُم؛ فاعلَم أنَّهم أيْضًا في حالِ تزكيَتِك لنَفْسِك يذمُّونَك في قُلوبِهم ناجزًا، و سُيُظْهِرُونَه بألسِنَتِهم إذا فارَقتَهُم.

السادس: اللَّعْنْ فإيَّاك أنْ تلْعَنْ شيْئًا ممَّا خَلَقَ الله تعالى منْ حيَوانٍ أو طَعَامٍ أو إنسَانٍ بعيْنِه، ولا تَقْطَع بشهادتِك على أحد من أهل القِبْلَة بشِرْكٍ أو كُفْرٍ أو نِفَاقٍ؛ فإنَّ المُطَّلِعَ على السَّرائر هو الله تعالى، فلا تَدْخُل بيْنَ العِبَاد و بيْن الله تعالى، وأعْلَم أنَّك يوْم القِيَامة لا يُقالُ لك: لِم لمْ تَلْعَن فُلانًا، ولمَ سَكَتَ عنْه؟ بل لو لم تلعَن ابليسَ طُولَ عُمْرِك، و لم تَشْغَلْ لسَانَك بذِكْرِه لم تُسْأَلْ عنْهُ و لم تُطَالَبْ به يوْم القِيَامَة. وإذا لعنْتَ أحَدًا منْ خَلْقِ الله تعالى طُولِبْتَ به، و لا تَذُمَّ شَيْئًا ممَّا خَلَق الله

تعالى، فقَدْ كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يذُمّ الطَّعَام الرَّدِيء قطُّ، بلْ كان إذا اشتهى شيْئًا أكَلَهُ و إلاّ تَرَكَه.

السّابع الدُّعاء على الخَلْق فاحفَظْ لسانَك عنْ الدُّعاء على أحَدٍ منَ خَلَق الله تعالى، و إنْ ظلمَكَ فكِلْ أمْرِه إلى الله تعالى؛ ففي الحديث: (إنَّ المظلوم ليَدْعُو على ظالِمِه حتَّى يُكافِئه ثُمّ يبْقَى للظَّالِم فضْلٌ عنِده يُطالِبُ به يوْمَ القِيَامة). وطوَّل بعْضُ النَّاس لسانَه على الحجّاج فقال بعْضُ السَّلَف: (إنّ الله ليَنْتَقِمْ للحجَّاج ممَّنْ تعرَّضَ له بلسَانِه كما ينْتَقِم منَ الحجّاج لمَنْ ظلَمَه).

الثامن المزاح والسخرية و الاستهزاء بالناس احفَظْ لسانَك منْه، في الجِدِّ والهَزْل؛ فإنَّه يُريقُ ماءَ الوَجْه و يُسْقِط المَهَابة، و يستَجِرّ الوَحْشِيَة، ويُؤْذِي القُلُوب، و هو مبْدأ اللُّجَاجُ والغَضَبُ والتَّصَارُم، ويَغْرِسُ الحِقْدَ في القُلُوب؛ فلا تُمَازِح أحَدًا؛ فإنْ مازَحَك أحَدٌ فلا تُجِبْه، وأعْرِضْ عنْهُم حتّى يخُوضُوا في حديثٍ غيْرِه، وكُنْ منَ الذِّين إذا مرُّوا باللَّغْو مرُّوا كرَامًا. فهذه مجامِعُ آفات اللّسان، ولا يُعينُك عليه إلاّ العُزْلَة، أو مُلازَمَة الصَّمْت غلا بقَدْر الضَّرُورة؛ فقَدْ كان أبوبكر الصِّدِيق رضي الله تعالى عنْه يضَعُ حَجَرًا في فِيه ليَمْنَعه ذَلِك منَ الكَلامِ بغير ضَرُورَة، ويُشِيرُ إلى لِسَانِه و يقول: هذا الذي أوْرَدَنِي الموَارِد. فاحتَرِز منه بجُهْدِك؛ فإنُّه أقوى أسباب هلاكك في الدُّنيا والآخرة.

آداب البطن

فاحفَظْهُ منْ تناوُل الحرام والشُّبْهة، واحرِصْ على طلَبِ الحلال، فإذا وجَدْتَه فاحرص على أنْ تقْتَصِر منه على ما دُونِ الشَّبْع، فإنَّ الشَّبْع يُقسِّي القَلْب، ويُفْسِد الذِّهن، ويبطل الحفظ، ويثقل الأعضاء عن العبادة و العلم، و يُقوِّي الشَّهوات، ويَنْصُر جُنُود الشَّيْطان. و الشَّبْع من الحلال مبْدَأ كُلِّ شرٍّ، فكيْف منَ الحرام وطلَبِ الحلال فريضةٌ على كُلِّ مُسْلم، و العبادة مع أكل الحرام كالبِنَاء على السرجين.

فإذا قنعت في السَّنَة بقمِيصِ خَشِنٍ، و في اليوم والليلة برغيفين من الخشكار، وتركت التَّلَذُّذ بأطيَبِ الأدم، لم يَعُوزَك منَ الحَلالِ ما يكْفِيكَ، و الحلال كثير. و ليْس بعليك أن تَتَيَقَّنْ بواطِنَ الأمُور، بلْ عليْك أنْ تَحْتَرِزَ ممَّا تَعْلَم أنَّهُ حرَامٌ أو تظُنَّ أنَّه حرَامٌ ظنًّا حصَلَ منْ علامَةٍ ناجزة مُقَدَّرَة بالمال؛ أمَّا المعلُوم فظاهِرٌ، وأمَّا المظنُونُ بعلامة فهو مالُ السُّلْطان و عُمَّالُه، و مالٌ منْ لا كسْبَ له إلاّ من النِّياحة، أو بَيْع الخَمْرِ، أو الرِّبا، أو المزامير؛ وغيْرِ ذَلِك من آلات اللَّهْو المُحَرَّمَة.

فإنَّ منْ علِمْت أنَّ أكثر ماله حرام قطْعًا، فما تأخُذُه من يدِه وإنْ أمكن ألا يكُونَ حلالا نادرا فهو حرام؛ لأنَّه الغالبُ على الظَّنِّ. ومن الحرام المَحْضِ ما يُؤْكَل من الأوقاف من غيْرِ شَرْطِ الواقِفِ، فمَنْ لم يَشْتَغِلْ بالتَّفَقُّه فما يأخُذُه من المدارِسِ حرام، و منْ ارتكب معصِيَةً تَرِدْ بها شهادَتُه، فما يأخُذُه باسْمِ الصُّوفية منْ وَقْفٍ أو غيْره فهو حَرَام. وقد ذكَرْنَا مداخل الشُّبُهات و الحلال والحرام في كتابٍ مُفْرَدٍ من كتب إحياء علوم الدين، فعليك بطَلَبِه؛ فإنَّ معرفَة الحلال وطَلَبِه فريضةٌ على كُلِّ مُسْلِم، كالصَّلوات الخَمْس.

آداب الفرْج

و أمّا الفرْجُ: فاحفَظْهُ عنْ كُلِّ ما حرَّم الله تعالى، و كُنْ كما قال الله: (و الَّذين هُم لِفُروجِهم حافِظون، إلاّ عَلى أزواجِهم أو ما مَلَكَت أيمانُهُم غَيرُ مَلومين). و لا تصِلْ إلى حفْظِ الفَرْجِ إلاّ بحِفْظِ العَيْن عنْ النَّظَر، و حِفْظُ القَلْب عنْ التَّفَكُّر، و حِفْظُ البَطْنِ عنْ الشُّبْهة وعنْ الشَّبْع؛ فإن هذه محركات للشهوة و مغارسها.

آداب اليدين

و أمّا اليَدان: فاحفظْهُما عنْ أنْ تضرِبَ بهما مُسْلِما، أوْ تتناوَلَ بهما مالاً حرامًا، أو تُؤْذي بهما أحَدًا منَ الخَلْق، أو تخونَ بهما في أمانَةٍ أو وَدِيعَة، أو تكتُبَ بهما ما لا يجوزُ النُّطْقُ به، فإنَّ القَلَمَ أحَدُ اللّسانَيْن، فاحفَظْ القَلَم عمَّا يجِبُ حفْظُ اللّسَان عنْه.

آداب الرجلين

و أمّا الرِّجْلان : فاحفظْهُما عنْ أنْ تمشِي بهما إلى حرام، أو تسْعَى بهما إلى باب سُلْطَانٍ ظالِمٍ؛ فإنَّ المشي إلى السَّلاطين الظَّلَمَة منْ غيْر ضرورة و إرهاق معصيَةٌ كبيرة؛ فإنَّه تواضُعٌ وإكرامٌ لهم على ظُلْمِهم. وقدْ أمَرَ الله تعالى بالإعراض عنهم في قوله تعالى: (**و لا تَركَنوا إلى الّذينَ ظلَموا فتَمَسَكُم النار**) وهو تكثِيرٌ لسوادِهم، وإنَّ ذلك لسبَبِ طلب مالهم فهو سعيٌ إلى حرام، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (منْ تواضَعَ لغنيٍّ صالِحٍ لغنَاه ذهبَ ثُلثا دينه) و هذا في غنِيٍّ صالِحٍ، فما ظنُّك بالغَنِيِّ الظّالم؟ وعلى الجُمْلَة، فحركَاتُك و سكنَاتُك بأعضَائِك نعمَةٌ من نِعَم الله تعالى عليك؛ فلا تُحرِّك شيْئًا منها في معصية الله تعالى أصْلا، واستَعْمِلها في طاعة الله تعالى.

و أعلَمْ أنَّك إنْ قصَّرْت فعليْك وبَالُه، و إنْ شمَّرْتَ فإليْك تَعُودُ ثَمْرَتُه، والله غَنِيٌّ عنْك و عنْ عَمَلِك، وإنَّما كلُّ نَفْسٍ بما كسَبَت رهينَةٌ، و إيَّاك أنْ تقول: إنَّ الله كريمٌ رحيمٌ يَغْفِرُ الذُّنُوب للعُصَاة؛ فإنَّ هذه كلِمَةُ حقٍّ أُريدَ بها باطِل، وصاحبُها مُلَقَّبٌ بالحماقة، بتلْقِيبِ رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: (الكيِّسُ منْ دان نفْسَه وعَمَل لمَا بعْد المَوْتَ، والأحمَق منْ أتبَعَ نفسَهُ هواها، وتمنَّى على الله الأمَانِي).

و أعلَمْ أنَّ قوْلَك هذا يُضاهي قَوْلَ منْ يُريدُ أنْ يكُونَ فقِيهًا في عُلُومِ الدِّين منْ غيْرِ أنْ يدرُسَ عِلْمًا واشتغَلَ بالبَطَالَة وقال: إنَّ الله كريمٌ رحِيمٌ قادِرٌ على أنْ يُفِيضَ على قَلْبِي منَ العُلُوم ما أفاضَهُ على قُلُوبِ أنبيَائِه و أوليَائِه منْ غيْرِ جُهْدٍ و تِكْرار و تعَلُّم وهو كقوْلِ منْ يُريد مالاً فتَرَك الحِراثَة والتِّجارَة والكَسْب ويتعَطَّل، وقال: إنَّ الله كريمٌ رَحيمٌ ولهُ خزائِنُ السَّموات والأرْض وهو قادِرٌ على أنْ يُطْلِعَنِي على كنْزٍ من كُنُوزٍ أستغْنِي به عنْ الكَسْبِ، فقد فعَلَ ذلك لبعْضِ عبادِه، فأنْتَ إذا سمِعْتَ كلامَ هذَيْن الرَّجُلَين استَحمَقْتَهُما وسخِرْت منْهُما، وإنْ كان ما وصفَاه منْ كرَمِ الله تعالى وقُدْرتِه صِدْقًا وحقًّا، فكذلك يضحك عليك أربابُ البصائر في الدِّين إذا طَلَبْتَ المغْفِرَة بغير سعْيٍ لَها،

و الله تعالى يقول: (**و أن لَيسَ لِلإنسان إلا ما سَعى**)، و يقول: (**إنَما تُجزونَ ما كُنتُم تَعملون**) و يقول (**إنّ الأبرارَ لَفي نَعيم، و إنّ الفُجارَ لَفى جَحيم**). فإذا لم تَكُنْ تترُك السَّعيَ في طلَبِ العِلْمِ و المال اعتمادًا على كرَمِه، فكذلك لا تَترُك التَّزوُّدَ للآخرة، ولا تَفْتَر؛ فإن ربَّ الدُّنيا واللآخرة واحدٌ، و هو فيهمَا كريمٌ رحيم، وليس يزيدُ له كرَمٌ بطاعَتِك وإنَّما كرَمُه سُبْحَانه وتعالى في أنْ يُيَسِّر لك طرِيقَ الوصول الى المَلِكِ المُقِيم والنَّعيم الدَّائِم المُخَلَّد، بالصَّبْر على تَرْكِ الشَّهوَاتِ أيَّامًا قلائِلَ، وهذا نهايةُ الكَرَمِ. فلا تحدث نفسك بتهويسات البطالين، و اقتد بأولى العزم والنهي من الانبياء والصالحين، ولا تطمع في أن تحصد ما لم تزرع، و ليت من صام وصلى وجاهد واتقى غفر له.

فهذه جمل مما ينبغي أن تحفظ عنه جوارحك الظاهرة، وأعمال هذه الجوارح إنما تترشح من صفات القلب؛ فإن أردت حفظ الجوارح فعليك بتطهير القلب؛ فهو تقوى الباطن، والقلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد، فاشتغل باصلاحه لتصلح به جوارحك، وصلاحه يكون بملازمة المراقبة.

آداب الصحبة مع الله تعالى

إعلَمْ أنَّ صاحِبَك الذّي لا يُفارِقُك في حضَرِك و سفَرِكَ و نوْمِك و يقَظَتِك، بل في حيَاتِك و موْتِك، هو ربُّك وسيِّدُك و مولاك و خالِقَك، و مهما ذكرْتَه فهو جلِيسُك؛ إذ قال الله تعالى: (**أنا جليسُ منْ ذكرَنِي**). ومهْما انكسَرَ قلبُك حُزْنًا على تقصيرِك في حقِّ دينك، فهو صاحِبُك و مُلازِمُك؛ إذ قال الله تعالى: (**أنا عنْدَ المُنْكسِرَةِ قُلُوبُهم منْ أجْلِي**). فلو عرَفْتَه حقَّ معرفته لاتَّخَذته صَاحِبا وتركْتَ النّاس جانِبا. فإنْ لم تقدرْ على ذلك في جميع أوقاتِك، فإيَّاك أنْ تُخَلِّي ليْلك ونَهارَك عنْ وقْتٍ تخْلُو فيه لمولاك وتتَلذَّذ معَهُ بمُنَاجاتِك له، وعنْد ذَلِك فعَليْك أنْ تتَعلَّم آداب الصُّحْبَة مع الله تعالى.

وآدابها: إطراقُ الرَّأس، وغضُّ الطَّرْف، وجَمعُ الهمِّ، ودَوَامُ الصَّمْتِ، وسكُونُ الجَوارِحِ، ومبادَرَةُ الأمْر، واجتنَابُ النَّهْي، وقلَّةُ الاعتراض على القَدَر، ودَوَامُ الذِّكْر، ومُلازَمَةُ الفِكْر، وإيثارُ الحقِّ على البَاطِل، والإياسُ عنْ الخَلْق، والخُضُوع تحْتَ الهَيْبة والإنكِسَار تحْتَ الماءِ، والسُّكُون عنْ حِيَلِ الكَسْب ثقَةً بالضَّمَان والتَّوكُّل على فضْلِ الله تعالى معرفَة بحُسْن الإختيَار. وهذا كله ينبغي أن يكون شعارك في جميع ليلك ونهارك؛ فإنها آداب الصحبة مع صاحب لا يفارقك، و الخلق كلهم يفارقونك في بعض أوقاتك.

شروط الصحبة والصداقة إحداهما:

أنْ تطلُبَ أوَّلاً شُرُوط الصُّحْبَة والصَّدَاقة، فلا تُؤَاخ إلاّ منْ يَصلُح للأُخوَّة والصَّدَاقة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المرْءُ على دِينِ خَلِيله فلينْظُرْ أحَدُكُم منْ يُخَالِل). فإذا طَلَبْتَ رَفِيقًا ليَكُونَ شريكك في التَّعلُّم، وصاحِبَك في أمْرِ دِينِك ودُنْياك، فرَاعِ فيه خمْسَ خِصَال:

الأولى: **العَقْل**: فلا خيْرَ في صُحْبَة الأحْمَق، فإلى الوُحْشَة والقَطِيعَة يَرْجِعُ آخِرَها، و أحسَنُ أحوَالِه أنْ يضُرَّك و هو يُرِيدُ أنْ يَنْفَعك، و العدُوُّ العاقِلُ خيْرٌ منَ الصَّدِيق الأحْمَقْ، قال **علي** رضي الله عنه:

فَلا تَصحَب أَخا الجَهلِ ... وَإِياكَ وَإِياهُ

فَكَم مِن جاهِلٍ أَردى ... حَليماً حِينَ آخاهُ

يُقاسُ المَرءُ بِالمَرءِ ... إذا ما المَرءُ ماشاهُ

كَحَذو النَعلِ بِالنَعلِ ... إذا مالنَعلُ حاذاهُ

و لِلشَىء مِنَ الشَىء ... مَقاييسُ وَأَشباهُ

و لِلقَلبِ عَلى القَلبِ ... دَليلٌ حِينَ يَلقاهُ

الثانية: **حسن الخلق**: فلا تصحب من ساء خلقه، وهو الذي لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة. وقد جمعه علقمة العطاردي رحمه الله تعالى في وصيته لابنه لما حضرته الوفاة، قال: يا بني إذا أردت صحبة إنسان فاصحب من إذا خدمته صانك، و إن صحبته زانك، و إن قعدت بك مؤنة مانك.. اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، و إن رأى منك حسنة عدها، و إن رأى منك سيئة سدها. اصحب من إذا قلت صدق قولك، و إن حاولت أمرا أمرك، و إن تنازعتما في شر آثرك. و قال علي رضي الله عنه رجزا:

إن أخاكَ الحَقُ مَن كانَ مَعَك ... وَمَن يَضر نَفسه لِيَنفَعَك

و مَن إذا ريبَ الزَمانُ صَدعَكَ ... شَتَتَ فيك شَملَهُ لِيَجمَعَك

الثالثة: **الصلاح**: فلا تصحب فاسقا مصرا على معصية كبيرة، لأن من يخاف الله لا يصر على كبيرة، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غوائله، بل يتغير بتغير الأحوال والأعراض، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: **(و لا تُطِع مَن أغفَلنا قَلبَهُ عَن ذِكرِنا وَاتَبَعَ هَواهُ وَكانَ أمرُه فُرُطا)**. فاحذر صحبة الفاسق؛ فإن مشاهدة الفسق والمعصية على الدوام تزيل عن قلبك كراهية المعصية، وتهون عليك أمرها، ولذلك هان على القلوب معصية الغيبة لإلفهم لها، ولو رأو خاتما من ذهب أو ملبوسا من حرير على فقيه لاشتد إنكارهم عليه، والغيبة أشد من ذلك.

الرابعة **ألا يكون حريصا على الدنيا**: فصحبة الحريص على الدنيا سم قاتل؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري فمجالسه الحريص تزيد في حرصك، ومجالسه الزاهد تزيد في زهدك.

الخامسة **الصدق**: فلا تصحب كذابا، فإنك منه على غرور، فإنه مثل السراب، يقرب منك البعيد، ويبعد منك القريب. ولعلك تعدم اجتماع هذه الخصال في سكان المدارس والمساجد، فعليك بأحد أمرين: إما العزلة والانفراد؛ ففيها سلامتك.. وإما أن تكون مخالطتك مع شركائك بقدر خصالهم.

القول في معاصى القلب

إعلم أنّ الصِّفات المذمومة في القلْب كثيرة، وطريقُ تطهير القلب من رذائلها طويلة، و سبيلُ العلاج فيها غامضٌ، وقد اندرس بالكُلّية علْمُه وعملُه، لغفلَة الخَلْق عنْ أنفُسِهم واشتغالهم بزخارف الدُّنيا.

وقد استقصينا ذلك كلَّه في كتاب (إحياء علوم الدين) في رُبْع المهلكات ورُبْع المنجيات، ولكنّا نُحذِّرك فإنَّها مُهلِكات في أنْفُسها، وهي أمَّهات لجُملة من الخبائث سواها: وهي الحسَد، والرِّياء، والعُجْب، فاجتَهد في تطهير قلبك منها، فإنْ قدَرْت عليها فتعلَّم كيفية الحذَر من بقيّتها من رُبْع المهلكات. فإنْ عجِزْت عن هذا، فأنت عن غيره أعجز.

ولا تظن أنك تسلم بنية صالحة في تعلم العلم، وفي قلبك شيءٌ من الحَسَد و الرِّياء والعُجْب، و قد قال صلى الله عليه وسلم: (ثلاثٌ مُهلكات: شحٌّ مطاع، وهوى متَّبَع، وإعجابُ المرْءِ بنفْسِه) .

الحسد

أمَّا الحسَدُ: فهو متشعِّبٌ من الشُّح، فإنَّ البخيل هو الذي يبخَل بما في يدِه على غيره، والشَّحيح هوالذي يبخل بنعمة الله تعالى وهي في خزائن قُدْرته تعالى، لا في خزائنه، على عباد الله فشحُّه أعظم، والمحسود هو الذي يشقُّ عليه إنعام الله تعالى من خزائن قُدرتِه، على عبدٍ من عباده بعلْمٍ أو مالٍ أو محبة في قلوب الناس، أو حظٍّ من الحظوظ، حتى أنه ليحبُّ زوالَها عنه، و إنْ لم يحصل له بذلك شيء من تلك النِّعمة؛ فهذا مُنْتَهى الخُبْث؛ فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الحسَدُ يأكل الحسنات كما تأكلُ النَّارُ الحطَبَ) .

و الحسُود هو المعذَّبُ الذي لا يُرْحَم، ولا يزالُ في عذابٍ دائمٍ في الدُّنيا إلى موْتِه، ولعذاب الآخرة أشدُّ وأكبَرُ.

بل لا يصِلْ العبْدُ إلى حقيقةِ الإيمان ما لم يُحبْ لسائِر النّاس ما يحبُّ لنفْسِه، بل ينبغي أنْ يُسَاهم المسلمين في السَّراء والضرَّاء؛ فالمسلمون كالبُنْيان الواحِد يشُدُّ بعضَه بعْضًا، وكالجَسَد الواحِد إذا اشتَكى منْه عضوٌ اشتكَى سائِرُ الجَسَد. فإنْ كُنْت

لا تُصادِف هذا منْ قلبك، فاشتغالُك بطلب التَّخلُّص منَ الهلاك أهمّ منْ اشتغالك بنوادِر الفُرُوع وعلمِ الخُصُومات.

الرِّياء

و أمَّا الرِّياء: فهو الشِّرْكُ الخفي، وهو أحدُ الشِّرْكيْن، وذلك طلَبُ المنزلة في قُلوبِ الخلْق، لتُنَال بها الجاهَ و الحشمة، وحبُّ الجاه من الهوى المُتَّبَع، وفيه هلَكَ أكثَرُ الناس، فما أهلك النَّاس إلاّ الناس، و لو أنصفَ الناس حقيقةً لعلموا أنَّ أكثر ما هم فيه من العلوم و العبادات فضْلاً عن أعمال العادات، ليس يحمِلُهم عليه إلا مُرآة النّاس، وهي مُحْبِطة للأعمال، كما ورَد الخبر(أنَّ الشهيد يُؤْمَرُ به يوم القيامة إلى النَّار، فيقول: يا ربِّ استشهدتُ في سبيلك، فيقول الله تعالى: بل أرْدتُ أنْ يُقال إنَّك شجاع، وقدْ قيل ذلك، وذلك أجرُك و كذلك يُقال للعالم و الحاجّ و القارىء).

العجب و الكبر و الفخر

و أمّا العُجْبُ والكِبَرُ و الفَخْرُ: فهو الدَّاءُ العُضَال، وهو نظَرُ العَبْد إلى نفْسِه بعيْن العزِّ و الاستظام، وإلى غيره بعين الإحتقار والذُّلِّ، ونتيجتَهُ على اللِّسان أنْ يقول: أنا و أنا كما قال إبليس اللّعين: (أنا خيْرٌ منه، خلقتنِي من نار، وخلقته من طين) و ثمرتُه في المجالس التَّرفُع والتَّقدُّم و طلَبُ التَّصدُّر فيها، و في المُحاورة الاستنكاف من أنْ يُرَدَّ كلامه عليه.

و المتكبر هو الذي إن وُعِظ أنِفَ، أو وَعَظ عنَّفَ، فكلُّ من رأى نفسَه خيْرًا منْ أحَدٍ منْ خلْق الله تعالى فهو مُتَكبِّر.

بل ينبغي لك أن تعلم أنَّ الخيْر منْ هو خيْرٌ عند الله في دار الآخرة، وذلك غيْبٌ، وهو موقوفٌ على الخاتمة؛ فاعتقادُك في نفسك أنَّك خيْرٌ منْ غيرِك جَهْلٌ مَحْضٌ، بل ينبغي ألا تَنْظُر إلى أحَدٍ إلاّ و ترى أنَّه خيْرٌ منك، وأن الفَضْلَ له على نفْسِك، فإنْ رأيت صغيرًا قُلْت: هذا لم يعصِ الله و أنا عصيتُه، فلا شكَّ أنَّه خيْرٌ منِّي و إنْ رأيْتَ كبيرًا قُلْت هذا قدْ عبَدَ الله قبْلي، فلا شكَّ أنَّه خيْرٌ منِّي .

و إنْ كان عالِمًا قلت: هذا قد أُعطَى ما لم أُعْط، وبلغَ ما لم أبلَغْ، وعلِمَ ما جهلتُ؛ فكيف أكونُ مثله و إنْ كان جاهلا قُلتَ: هذا قد عصى الله بجهل، و أنا عصيْتُه

بعلم؛ فحُجَّة الله علي آكد، وما أدري بمَ يُخْتَم لي وبم يُخْتَم له؟ و إنْ كان كافرا قُلْت: لا أدري، عسى أنْ يُسْلِم ويختم له بخير العمل، وينسل بإسلامه من الذنوب كما تنسل الشعرة من العجين، وأما أنا ء والعياذ بالله ء فعسى أن يضلني الله فأكفر فيختم لي بشر العمل؛ فيكون غدا هو من المقربين، وأنا أكون من المبعدين.

فلا يخرُجُ الكِبَرُ من قلبِك إلا بأنْ تَعرِفْ أنَّ الكبير منْ هو كبير عند الله تعالى، وذلك موقوفٌ على الخاتمة، و هي مشكوكٌ فيه؛ فيشغلك خوْفُ الخاتِمة عنْ أنْ تتكبَّر مع الشَّكِّ فيها على عباد الله تعالى، فيقينُك و إيمانِك في الحال لا يُنَاقِض تجويزَك في الإستقبال؛ فإنَّ الله مُقلِّبَ القُلوب يَهدي من يشاء، و يُضِلُّ منْ يشاء.

حديث جامع في معاصي القلب

والأخبار في الحسد والكبر و الرياء و العجب كثيرة، و يكفيك فيها حديث واحد جامع؛ فقد روى ابن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ: يا معاذ حدثني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت، ثم سكت، ثم قال: واشوقاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم و إلى لقائه، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لي: (يا معاذ، إني محدثك بحديث إن أنت حظقته نفعك عنداله، و إن ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله تعالى يوم القيامة يا معاذ إن الله تبارك وتعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات).

قال شَيْخُ الْإِسْلَامِ أحْمَدُ ابْنُ تيمية رحمه اللَّهُ :

و مِمَّا يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَسُوغُ فِي الْعَقْلِ و لَا الدِّينِ طَلَبُ رِضَا الْمَخْلُوقِينَ لِوَجْهَيْنِ

(أَحَدُهُمَا) : أَنَّ هَذَا غَيْرُ مُمْكِنٍ . كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ : رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ .

فَعَلَيْك بِالْأَمْرِ الَّذِي يُصْلِحُك فَالْزَمْهُ وَدَعْ مَا سِوَاهُ و لا تُعَانِهِ .

و (الثَّانِي) : أَنَّا مَأْمُورُونَ بِأَنْ نَتَحَرَّى رِضَا اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى : و اللَّهُ و رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ .

و عَلَيْنَا أَنْ نَخَافَ اللَّهَ ؛ فَلَا نَخَافُ أَحدًا إلَّا اللَّهَ ،

كَمَا قَالَ ء تَعَالَى : فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

و قَال : فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ و اخْشَوْنِ .

و قَالَ : فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ و إِيَّايَ فَاتَّقُونِ .

فَعَلَيْنَا أَنْ نَخَافَ اللَّهَ و نَتَّقِيَهُ فِي النَّاسِ :

فَلَا نَظْلِمَهُمْ بِقُلُوبِنَا و لا جَوَارِحِنَا ، و نُؤَدِّي إِلَيْهِمْ حقوقَهُمْ بِقُلُوبِنَا و جَوَارِحِنَا ،

و لَا نَخَافَهُمْ فِي اللَّهِ ؛ فَنَتْرُكَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ خِيفَةً مِنْهُمْ .

و مَنْ لَزِمَ هَذِهِ الطَّرِيقَة كَانَتْ الْعَاقِبَةُ لهُ كما كَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَة :

" أَمَّا بَعْدُ :

فَإِنَّهُ مَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ ؛ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ ، و عَادَ حَامِدُهُ مِنْ النَّاسِ ذامًّا ، و مَنْ الْتَمَسَ رِضا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، و أَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ " .

فَالْمُؤْمِنُ لَا تَكُونُ فِكْرَتُهُ و قَصْدُهُ إِلَّا رِضا رَبِّهِ و اجْتِنَابَ سَخَطِهِ و الْعَاقِبَةُ لَهُ ،

و لا حَوْلَ و لا قُوَّة إِلَّا بِاللَّهِ. مجموع الفتاوي (3 / 232 ، 233).

الصبر على أذى الخلق

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: يُعِينُ العبدَ على هذا الصبر عدّةُ أشياءَ:

أحدها: أنْ يشهَدَ أنَّ الله سُبْحانَهُ و تعالى خَالِقُ أفعَالِ العباد، حركَاتِهِم و سَكَناتِهِم و إراداتِهِم، فما شاءَ الله كان، و مالم يشأْ لم يكُنْ، فلا يتحرَّك في العالم العُلْوِيّ و السّفليّ ذرّة إلاّ بإذنه ومشيئتِه، فالعباد آلة، فانظر إلى الذي سَلّطهم عليك، و لا تَنظُرْ إلى فِعلِهم بكَ، تَستَرِحْ من الهمّ و الغَمّ.

الثاني : أن يَشْهَد ذُنُوبَه، وأنّ الله إنما سلّطهم عليه بذنبه، كما قال تعالى: { **و مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** } (الشورى: 30).

فإذا شهد العبدُ أن جميع ما يناله منْ المكروه فسببُه ذنوبُه، اشتغلَ بالتوبة و الاستغفار من الذنوب التي سلّطهم عليه بسببها ، عن ذَمِّهم ولَومِهم والوقيعةِ فيهم. و إذا رأيتَ العبدَ يقع في الناس إذا آذَوْه، و لا يَرجع إلى نفسِه باللَّوْم والإستِغْفَار، فاعلمْ أن مصيبتَه مصيبةٌ حقيقية، و إذا تابَ واستغفر وقال: هذا بذُنُوبي، صارتْ في حقّهِ نعمةً. قال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – كلمةً من جواهرِ الكلام: لا يَرجُوَنّ عبدٌ إلاّ ربَّه، ولا يَخافَنّ عبدٌ إلاّ ذنبَه . و رُوِي عنه وعن غيره: ما نزلَ بلاءٌ إلاّ بذنبٍ، ولا رُفِع إلاّ بتوبة.

الثالث: أن يشهد العبدُ حُسْنَ الثواب الذي وعده الله لمن عَفَا وصَبَر، كما قال تعالى: {**و جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا و أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ إِنّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ**} الشورى: 40 .

و لمّا كان الناسُ عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام: ظالم يأخذ فوق حقّه، و مقتصدٌ يأخذ بقدرِ حقِّه، ومحسنٌ يعفو ويترك حقَّه، ذَكَر الأقسامَ الثلاثة في هذه الآية، فأولها للمقتصدين، و وسطها للسابقين، و آخرها للظالمين .و يشهد نداءَ المنادي يوم القيامة: ''إلاّ لِيَقُم مَن وَجَب أجرُه على الله'' ، فلا يَقُمْ إلاّ منْ عفا وأصلح. وإذا شهدَ مع ذلك فوتَ الأجر بالانتقام و الاستيفاء، سَهُلَ عليه الصبر والعفو.

الرابع : أنْ يشهد أنه إذا عَفا وأحسنَ أورثَه ذلك من سلامةِ القلب لإخوانه، و نَقائِه من الغِشّ والغِلّ وطلبِ الانتقام وإرادةِ الشرّ، وحصَلَ له من حلاوة العفو ما يزيد لذّتَه ومنفعتَه عاجلاً وآجلاً، على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافًا مضاعفةً، ويدخل في قوله تعالى: {**و الله يُحِبُّ اَلْمُحْسِنِينَ** } (آل عمران: 134) ، فيصير محبوبًا لله، ويصير حالُه حالَ من أُخِذَ منه درهمٌ فعُوضَ عليه ألوفًا من الدنانير، فحينئذٍ يَفرحُ بما منَّ الله عليه أعظمَ فرحًا يكون.

الخامس : أنْ يعلم أنه ما انتقم أحد قَطُّ لنفسه إلاّ أورثَه ذلك ذُلاًّ يجده في نفسه، فإذا عَفا أعزّه الله تعالى، وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق حيث يقول: ''ما زاد الله عبدًا بعَفْوٍ إلاّ عزًّا'' . فالعزّ الحاصل له بالعفو أحبّ إليه وأنفع له من العزّ الحاصل له بالانتقام، فإنّ هذا عِزٌّ في الظاهر، وهو يُورِث في الباطن ذُلاًّ، والعفوُ ذُلٌّ في الباطن، وهو يورث العزَّ باطنًا وظاهرًا.

السادس: و هي من أعظم الفوائد – : أنْ يَشهدَ أنَّ الجزاء من جنس العمل، و أنَّهُ نفسه ظالمٌ مذنب، وأنّ من عَفا عن الناس عَفَا الله عنه، ومن غَفَر لهم غَفَر الله له. فإذا شَهدَ أن عفوه عنهم وصفحَه وإحسانَه مع إساءتِهم إليه سببٌ لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله، فيعفو عنه ويصفح، و يُحسِن إليه على ذنوبه، و يَسْهُل عليه عفوُه و صبرُه، و يكفي العاقلَ هذه الفائدةُ.

السابع: أنْ يَعلم أنه إذا اشتغلتْ نفسُه بالانتقام وطلب المقابلة ضاعَ عليه زمانُه، وتفرّقَ عليه قلبُه، وفاتَه من مصالحِه مالا يُمَكِن استدراكُهُ، ولعلّ هذا أعظم عليه من المصيبة التي نالته من جهتهم، فإذا عفا وصَفحَ فَرغَ قلبُه وجسمُه لمصالحه التي هي أهمُّ عنده من الانتقام.

الثامن: أنْ انتقامَه واستيفاءَه وانتصارَه لنفسِه، وانتصارَه لها، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انتقمَ لنفسِه قَطُّ، فإذا كان هذا خيرَ خلق الله وأكرمَهم على الله لم يَنتقِمْ لنفسِه، مع أن أذاه أذى الله، ويتعلّقُ به حقوق الدين، ونفسه أشرف الأنفُس وأزكاها وأبرُّها، وأبعدُها من كلّ خُلُقٍ مذمومٍ، وأحقُّها بكل خُلُقٍ جميلٍ، ومع هذا فلم يكن يَنتقِم لها، فكيف يَنتقِمُ أحدنا لنفسِه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب، بل الرجل العارف لا تُساوِي نفسُه عنده أن ينتقم لها، ولا قدرَ لها عنده يُوجِبُ عليه انتصارَه لها.

التاسع: إن أُوذِيَ على ما فعلَه لله، أو على ما أُمِرَ به من طاعتِه ونُهي عنه من معصيتِه، وجبَ عليه الصبرُ، ولم يكن له الانتقام، فإنّه قد أوذِي في الله فأجرُه على الله.

و لهذا لمّا كان المجاهدون في سبيل الله ذهبتْ دماؤهم و أموالُهم في الله لم تكن مضمونةً، فإن الله اشترى منهم أنفسهم و أموالهم، فالثمن على الله لا على الخلق، فمن طلبَ الثمنَ منهم لم يكن له على الله ثمنٌ، فإنه من كان في الله تَلَفُه كان على الله خَلَفُه، و إن كان قد أُوذِي على مصيبة فليَرجعْ باللومِ على نفسِه، ويكون في لَومِه لها شُغْلٌ عن لَومِه لمن آذاه، و إن كان قد أُوذِي على حظٍّ فليُوطِّن نفسَه على الصبر، فإنّ نيلَ الحُظوظِ دونَه أمرٌ أَمَرُّ من الصَّبر، فمن لم يصبر على حرّ الهَوَاجر و الأمطارِ و الثلوج و مشقةِ الأسفارِ و لصوصِ الطريقِ، و إلاّ فلا حاجة

له في المتاجر . و هذا أمر معلوم عند الناس أنّ مَن صدَقَ في طلب شيء من الأشياء بُذِّل من الصبر في تحصيله بقدر صدقِه في طلبِه.

العاشر: أنْ يَشهدَ معيَّةَ الله معه إذا صَبَر، و محبَّةَ الله له إذا صَبَر، و رضاه. و من كان الله معه دَفَع عنه أنواعَ الأذى والمضرّات مالا يَدفعُه عنه أحدٌ من خلقِه، قال تعالى: { **و اصْبِرُوا إنّ اللّهَ مَعَ الصّابِرِينَ** } الأنفال: 46،
و قال تعالى: { **و اللّهُ يُحِبُّ الصّابِرِينَ** } آل عمران: 146.

الحادي عشر: أنْ يَشهد أن الصبرَ نِصفُ الإيمان، فلا يبدّل من إيمانه جَزاءً في نُصرةِ نفسِه، فإذا صَبَر فقد أحرزَ إيمانَه، وصانَه من النقص، والله يدفع عن الذين آمنوا.

الثاني عشر : أنْ يشهد أنّ صبرَه حكمٌ منه على نفسِه، وقَهرٌ لها وغَلَبةٌ لها، فمتَى كانتِ النفسُ مقهورةً معَه مغلوبةً، لم تطمعْ في استرقاقِه وأسْرِه وإلقائِه في المهالك، ومتى كان مطيعًا لها سامعًا منها مقهورًا معها، لم تزَلْ به حتَّى تُهلِكَه، أو تتداركَه رحمةٌ من ربِّه. فلو لم يكن في الصبر إلاّ قَهرُه لنفسِه ولشيطانِه، فحينئذٍ يَظهرُ سلطانُ القلبِ، وتَثبُتُ جنودُه، ويَفرَحُ ويَقوَى، ويَطْرُد العدوّ عنه.

الثالث عشر: أنْ يعلم أنَّهُ إن صبرَ فاللهُ ناصرُه ولابُدَّ، فاللهُ وكيلُ من صَبر، وأحالَ ظالمَه على الله، و منْ انتصَر لنفسِه و كلَهُ اللهُ إلى نفسِه، فكان هو الناصر لها. فأينَ مَن ناصرُه اللهُ خيرُ الناصرين إلى مَن ناصِرُه نفسُه أعجز الناصرين وأضعفُه؟

الرابع عشر: أنَّ صَبْرَه على منْ آذاه واحتمالَه له يُوجِبُ رجوعَ خَصْمِه عن ظُلمِه، ونَدامتَه واعتذارَه، ولومَ الناس له، فيعودُ بعد إيذائِه له مستحييًا منه نادمًا على ما فعلَه، بل يَصيرُ مواليًا له.

و هذا معنى قوله تعالى: {**ادْفَعْ بِالّتِي هِيَ أحْسَنُ فَإذَا الّذِي بَيْنَكَ و بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأنّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ و مَا يُلَقّاهَا إلّا الّذِينَ صَبَرُوا و مَا يُلَقّاهَا إلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**}فصلت:34-35.

الخامس عشر: ربّما كان انتقامُه ومقابلتُه سببًا لزيادة شرّ خصمِه، وقوّةِ نفسِه، وفكرته في أنواع الأذى التي يُوصِلُها إليه، كما هو المشاهَد. فإذا صبر وعفا أَمِنَ من هذا الضرر، والعاقلُ لا يختارُ أعظمَ الضررين بدَفْع أدناهما. وكم قد جلبَ

الانتقامُ والمقابلةُ من شرٍّ عَجَزَ صاحبُه عن دفعِه، و كم قد ذهبتْ نفوس ورئاسَات و أموال لَو عفا المظلومُ لبقيتْ عليه.

السادس عشر : أنّ من اعتادَ الانتقام و لم يَصبِرْ لابُدّ أن يقعَ في الظلم، فإنّ النفس لا تَقتصِرُ على قدرِ العَدْل الواجب لها، لا علمًا ولا إرادةً، وربما عجزت عن الاقتصار على قدرِ الحقّ، فإنّ الغضبَ يَخرُجُ بصاحبه إلى حدٍّ لا يَعقِلُ ما يقول و يفعل، فبينما هو مظلوم يَنتظِرُ النَّصْرَ وَالعِز، إذ انقلبَ ظالمًا يَنتظِرُ المقتَ و العقوبة.

السابع عشر : أنّ هذه المَظْلَمة التي ظُلِمَها هي سبب إمّا لتكفيرِ سيئتِه، أو رَفْعِ درجتِه، فإذا انتقمَ و لم يَصبِرْ لم تكنْ مُكفِّرةً لسيئتِه و لا رافعةً لدرجتِه.

الثامن عشر : أنّ عفوَه وصبرَه من أكبر الجُنْدِ له على خَصْمِه، فإنّ من صَبَر وعفا كان صبرُه وعفوه مُوجِبًا لذُل عدوّه وخوفِه وخَشيتِه منه ومن الناس، فإنّ الناس لا يسكتون عن خصمِه، وإن سَكتَ هو، فإذا انتقمَ زالَ ذلك كلُّه. ولهذا تَجِدُ كثيرًا من الناس إذا شَتَم غيرَه أو آذاه يُحِبُّ أن يَستوفيَ منه، فإذا قابله استراحَ وألقَى عنه ثِقلاً كان يجده.

التاسع عشر : أنه إذا عفا عن خصمِه استشعرتْ نفسُ خصمِه أنه فوقَه، وأنه قد رَبِحَ عليه، فلا يزال يرى نفسَه دونَه، وكفى بهذا فضلاً وشرفًا للعفو.

العشرون : أنه إذا عفا وصَفَحَ كانت هذه حسنةً، فتُوَلِّدُ له حسنةً أخرى، وتلك الأخرى تُولِّدُ له أخرى، و هَلُمَّ جَرًّا، فلا تزال حسناتُه في مزيد، فإنّ من ثواب الحسنةِ الحسنة، كما أنّ من عقاب السيئةِ السيئة بعدها. وربّما كان هذا سببًا لنجاتِه و سعادتِه الأبدية، فإذَا انتقم وانتصرَ زال ذلك .

منْ أقوال الإمام الإبراهيمي:

" فأما اللسانُ العربيُّ، فهو لسان هذا الدينِ الذي نزَل به كتابُه، وهو يُعَد ترجمانه الحاذق الذي نقل الإسلامَ و ما فيه من عقائدَ ساميةٍ، و حِكَمٍ غالية، و أخلاقٍ عالية،

و أسرارٍ جليلة، و آداب قيِّمة إلى أممٍ أجنبيةٍ عن لغة هذا الدين، و أخَذَهم بها أخْذَةَ السِّحرِ، بكيفيةٍ تُرِيهم أن الدينَ هو اللغةٌ، و أنَّ اللغة هي الدين ".

" إنَّ محاسنَ هذا الدِّينِ كوَّنت له أعداءً من غير المُنْتَسبِين إليه، يرمُونَه بكُلِّ نقيصة، و إنَّ حقائِقَه و مقاصدَه السَّامِيَة كوَّنتْ له أعداءً من المنتسبين إليه، يرمُونَه بكُلِّ معضلة، و إنَّ عداوة الأوَّلِين منشؤُها سوءُ القصد، و عداوة الأخِيرِينَ منشؤها سوءُ الفَهْم، و ليسوا سواءً في القصد والغرَض، و لكنهم سواءٌ في الأثَر" .

" لا تُوجد في الإسلام وظيفةٌ أشرَفُ قدراً، و أسْمى منزلَة، و أرحبُ أفقاً ، و أثقل تبِعة، و أوثَقُ عهْداً، و أعظَم أجْراً عند الله منَ وظيفةِ العالم الدِّيني ذلك لأنَّه وارث لمقام النبوة وآخذٌ بأهمِّ تكاليفها و هو الدَّعوة إلى الله، وتوجيهِ خلْقِه إليه، وتزكيتِهم و تعليمِهم، وترويضِهم على الحقِّ حتَّى يفهموهم و يقبَلُوه، ثم يعمَلُوا به، و يعملُوا لـه.

فالعالم بمفهومه الدِّيني في الإسلام قائدٌ ، ميدانُه النُّفوس، و سلاحُه الكتاب والسُّنَّة ، و تفسيرهما العمَلِي من فعل النَّبي و فعْلُ أصحابِه ، و عونُه الأكبَر على الإنتصار في هذا الميدان أنْ ينسى نفسَه ، و يذوبُ في المعاني السَّامية التي جاء بها الإسلام ، و أنْ يطرَح حظوظَها وشهواتها منَ الاعتبار ، وأنْ يكون حظَّهُ من ميراث النُّبوة أن يُزكي و يُعلِّم ، و أنْ يقول الحقَّ بلسانِه ، ويُحقِّقه بجوارحِه ، و أنْ يَنصُرَه إذا خذَلَهُ النَّاسُ ، و أنْ يُجاهد في سبيله بكُلِّ ما آتاه الله من قوة . أما الوسيلة الكبرى في نجاحه في هذه القيادة فهي أن يبدأ بنفسِه في نقطة الأمر و النَّهي، فلا يأمر بشيء ممَّا أمر به اللهُ و رسوله حتّى يكون أوَّل فاعل لـه ، و لا ينهى عن شيء ممّا نهى الله و رسولُه عنه حتَّى يكونَ أوَّلَ تَاركٍ لـه ، كل ذلك ليأخذ عنه الناس بالقُدوة والتّأسي أكثَرَ ممَّا يأخذون عنه بوساطة الأقوال المُجَرَّدة والنُّصُوص اللَّفْظية ؛ لأنَّ تلاوة الأقوال و النصوص لا تعدُو أنْ تكون تبليغاً ، والتبليغ لا يستلزم الإتِّباع، و لا يُثْمر الاهتداء ضربة لازب ، و لا يعدو أن يكون تذكيراً للناسي، و تبكيتاً للقاسي، و تنبيهاً للخامل، و تعليماً للجاهل، و إيقاظاً للخامِل، و تحريكاً للجامد ، و دلالةً للضال ".

أدعية النبي المصطفى عليه الصلاة و السلام:

- اللهم فارج الهم وكاشف الغم مجيب دعوة المضطرين، رحمان الدنيا و الاخرة و رحيمهما، أن ترحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة مَن سواك.

- اللهم انفعني بما علّمتني، و علّمْني ما ينفعُنِي ، و زِدْنِي عِلْمًا، الْحَمْدُ للّه على كُلِّ حالٍ ، و أعُوذُ بِاللّه مِنْ حَالِ أهْلِ النّار.
- اللهم فاطِرَ السّموات و الأرْض عالمَ الغيْب و الشهادة لا إله إلا أنت ربَّ كُلِّ شيْءٍ ومليكِه أعوذُ بك من شرِّ نفْسِي و منْ شرِّ الشّيطان و شرَكِه و أنْ أقتَرِفَ على نفسِي سوأ أو أجُرَّه إلى مُسْلِم.

- اللّهُمَّ إنّي أسْألُكَ من الخَيْر كُلّه: عَاجِلِه و آجِلِه، ما عَلِمْتُ مِنْه و ما لم أعْلَم، و أعُوذُ بِكَ مِنَ الشّرِّ كُلّه عَاجِلِه وآجلِهِ، ما عَلِمْتُ مِنْهُ و ما لم أعْلَمْ. اللّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَألكَ عَبْدُكَ و نَبِيُّكَ، وَأعُوذُ بك منْ شَرِّ ما اسْتَعَاذَ بك منه عبْدَك و نَبِيُّك. اللّهُمَّ إنّي أسْألُكَ الْجَنَّة، و ما قَرَّبَ إلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أو عَمَلٍ، و أعُودُ بِكَ مِنَ النَّار وَمَا قرَّبَ إليها مِنْ قَوْلٍ أو عَمَلٍ، و أسْألُكَ أنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا.

- اللّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ و مِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ و مِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ و مِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا.

- اللّهُم إنّي أعوذُ بِك منْ جهْدِ البَلاء و دَرْك الشّقاء، و سُوءِ القَضَاء، و شماتَة الأعدَاءِ

- للهُ الله ربي لا أشرك به شيئًا.

فصل في فضل الذكر

- روى الترمذي ، عن الزهريّ ، قال" تَسْبيحة في شهررمضان أفضلُ من ألفِ تسبيحةٍ في غَيْرِهِ " .

- عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أبيه ، قَال:جَاءَ أعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه و سَلَّمَ ، فَقَال : عَلِّمْنِي كَلامًا أقُولُهُ . قَالَ " قُلْ : **لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** " . قَالَ : هَؤُلاءِ لِرَبِّي ، فَمَا لِي ؟ قَالَ : " تَقُولُ : **اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي**. " .

- من قال **لا حوْلَ و لا قوَّة إلا بالله** كان دواءًا من تسعة و تسعين داء أيسرُها الهمّ.

- قال صلّى الله عليه وسلم : **يا أيُّها الناسُّ استغفِرُوا ربَّكُم وتُوبُوا إليه فإنّي أستغفر الله وأتوب إليه في كُلِّ يوم مئة مرَّة أو أكثر منْ مئة مرَّة.**

- و قال صلّى الله عليه وسلم منْ قالَ : **أستغفِرُ الله الذّي لا إله إلاّ هو الحيُّ القيُّومُ و أتُوبُ إليه ، ثلاثًا ، غُفِرَت له ذنُوبه و إنْ كان فارًّا من الزَّحْفِ.**

- سُئِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أيُّ الكلامِ أفضَلْ ؟ قال : **ما اصطفى الله لملائِكتِه أو لعبادِه : سبحان الله وبحمده.**

- قال صلى الله عليه وسلم **لأنْ أقولَ : سُبْحانَ الله ، والحمْدُ لله ، ولا إلهَ إلاّ الله ، والله أكبْرُ أحبُّ إلي ممَّا طلعَت عليه الشَّمْسُ.**

- قال صلَّى الله عليه وسلَّم **أفضَلُ الكلام بعد القرآن أربَعٌ وهُنَّ من القُرآن : سُبْحانَ الله والحَمْدُ لله ولا إلهَ إلاّ الله والله أكبَرُ.**

تائيةُ ابنُ الفارض في تعظيم المولى و تنْزيهه:

إلهي إلهي إنّ حمدَك واجبٌ علَيَّ فأمدِدْني إليهِ بقوَّةِ
لك الحمْدُ حمْدٌ لا انتهاء لطُولِه على مِنَنٍ أوليتَنِيها فأوْلَتِ
و إنْ كُنْتُ لا أسْطيعُ حمْدَك كُلَّه لوهْنٍ بأركانِي و ضعْفٍ بقُوَّتي
فأحمَدُك اللّهم حمْدًا أطيقُه بمبْلَغ تمكيني و غاية همَّتي
وغايتُنا عجْزٌ عنْ الحمْد مُشْعَرٍ بعزَّةِ ذاتِ المُنْعِمِ المُستحقَّة
و أسألُك اللهُم نُورًا يدُلُّني عليْك و يُنْمي العقْلَ عنْ كُلِّ كبْوَة
و ها أنا ذا باسطُ الرّزْق واقفٌ ببابِك أرجو أنْ تمُنَّ ببَسْطتِي
و مالي إلا أنت مولى و سيِّدٌ أذَلُّ لك حينًا فيرحم ذلّتي
و أنزِلُ حاجَتي به فيرُدُّني بحالة فوْزٍ لا بحالة خيْبَة
و أسألُه تفريجَ كرْبي فعندما أريدُ إلى هذا يُفرِّجُ كُرْبتي
و ألبَسُ جِلْبَاب التَّملُّز رغبَةً فيمنحُني قصْدي و يُؤْنِسُ غُرْبَتي
فمن أيِّ وجْهٍ أو بأيِّ وسيلَةٍ أُحبُّك إلاّ بافتِقارٍ و عيْلَةِ
فإنْ رُمتُ أنْ أُثني بجَهْدِ قريحتِي فمدُّك أعْلى منْ ثناءِ قريحتِي
و كلُّ الذِّي تلقَاهُ ألسُنُنا مَعًا و تُومِئُ إليه منْ جَلالٍ و عِزَّة
فما هو إلاّ دُونَ واجِبِك الذِّي تقدَّسَ عنْ دَرْك العقُول الرَّشيدة
و ما بالحَديثِ بالقَدِيم إحاطَةٌ و لم يكُ بُدٌّ منْ تلاشٍ و دهْشَةِ
و ما أخفَتِ الأوهامُ منْ مُتَخيَّل فلستُ به بلْ غيْر ما هي أخْفَتِ
إلاهي كما أرشدتني و هديتَنِي لِعجْزٍ عنْ إدراكِ الصِّفات العظيمَة

الصبرعلى أذى المنافقين والتحذير من أخلاقهم للإمام محمد بن علي الشوكاني

بسم الله الرحمن الرحيم

و الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين، وعلى آله الطاهرين وصحبه الراشدين.

وبعد؛ فإنَّا رأينا من بعض أهل عصرنا من يتَّصفُ بالأوصاف التي ذكرها الله سبحانه في كتابه العزيز، حيث قال عز وجل :**(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُون (118) هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور (119) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيط)]**آل عمران: **118-120]**، انظر كيف وصف سبحانه ما يقع من هذه الطائفة من الخَبَال والخِذلان و ودادة ما يُعنِتُ أهلَ الإيمان، وظهور البغضاء ـ التي محلُّها القلوب ـ بترجمةِ الألسُن عنها وظهورها منها، وأنَّ ذلك الذي تُبديه الألسُنُ من الأفواه إنَّما هو البَعض، وما تُخفيه الصدورُ أكبرُ، ثم ختم الآية بأنَّ هذا البيان الربَّاني بالآيات القرآنيّة إنَّما يفهمُه مَن يتعقَّلُ الأمورَ كما ينبغي، ويفهمُها كما يجب، لا مَن كان غافلاً بَليدَ الفهم ضعيفَ العقل، فإنَّه يلتبسُ عليه صنيعُ هؤلاء المنافقة، الذين يُبطِنون ما لا يُظهِرون، ولكنْ فلتاتُ ألسُنهم وما تَجيشُ به خواطرُهم ممَّا استجنَّ في قلوبهم من الغيظ: يستدلُّ به العُقلاءُ على ما وراءَه و يتعقَّلُ به ما خلفه من العداوةِ الكامنة، كموت النار في صمم الأحجار.

ثم أوضحَ لعباده المؤمنين أنَّهم قد اغترُّوا بظواهر أحوالهم و ما تلقَّوْه من نفاقهم، فأحبُّوهم مع أنَّهم لا يُحبُّونهم، وأنَّ المؤمنين ـ على طريقة الإيمان الخالِصِ التامِّ ـ بالكتاب كُلِّه، وأضدادُهم لا يؤمنون أصلاً؛ بل ينافقونهم فيقولون آمنَّا، وذلك مجرَّدُ قول باللِّسان لا حقيقة له ولا اعتقاد قلب.

ثمَّ بالغ الربُّ سبحانه في غَيْظ هؤلاء المنافقين ومزيد بُغضهم و تكالبهم في العداوة للمؤمنين فقال :**(و إِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ)**، و البلوغُ إلى هذا الحدِّ لا يكون إلاَّ لالتهاب صدورهم وتسعُّر قلوبهم واضطرام خواطرهم، كما تراه فيمن

بلغ به الغيظُ إلى عضّ أنامله، فإنَّه لا يكون ذلك إلاّ لأمر قد فدحَهُ و بلغ منه إلى الغاية التي ليس وراءها غاية.

ثم علَّم الله المؤمنين بما يقولونه لهم عند ذلك، و أمر رسولَه صلى الله عليه وسلَّم أنْ يقول لهم:(**مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ**)، فانظر هذا الأدبَ الإلهي، والتعليمَ الربَّاني، فإنَّك لو جئتَ بكلِّ عبارةٍ في الردِّ على هؤلاء المنافقة لم تجدْ جواباً أبلغ من هذا، ولا أقطعَ لظهورهم، و لا أنكأ لقلوبهم وأخرسُ لألسُنهم منه، فإنَّ غاية ما يتأثَّر عن مزيد العداوة هو الغيظ، فإنْ تعاظمَ وتفاقم و أفرطَ بصاحبه بلغ به الـموتَ، فإذا قلتَ لمن غلتْ مراجلُ قلبه واضطرمت نيارُ جوفه واضطربت أمواجُ صدره بما جلبتْه عليه عداوتُه لك من الغيظ: «مُتْ بغيظك»، فقد بلغتَ من نكايته مبلغاً لا تفي به عبارةٌ ولا يُحيطُ به قولٌ؛ لأنَّك جئتَ بغاية ما يبلُغ إليه كيدُه وينتهي إليه غيظُه، وقلتَ له: «مُتْ بغيظك» فإنَّك لم تضرَّ به إلاَّ نفسَك، ولم ينجعْ إلاَّ فيك، ولا بلغ هذه الغاية إلاَّ منك، وعند أنْ يسمع هذا الجوابَ يزدادُ غيظًا إلى غيظه، وبلاءً إلى بلائه، ومحنةً إلى محنته، فكانت الثمرةُ التي استفادها من عداوته وما حمله من حسده هو هذا العذاب العظيم والبلاء المُقيم، ولم ينلْ أهلَ الإيمان من ذلك شيءٌ أصلاً، فجارَ كيدُه عليه، و لا يحيقُ المكرُ السيِّءُ إلاَّ بأهله، و يرجعُ بغيُه إليه:(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم**)[يونس: 23]، وعاد نكثُه إلى نفسه:(**فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ**)،وحلَّ خداعُه به:(**يُخَادِعُون اللّهَ و الَّذِينَ آمَنُوا و مَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم**)[البقرة: 9]

ثم أخبر سبحانه عباده المؤمنين بأنَّه عليمٌ بما تُجنُّه الصدورُ وتُخفيه القلوبُ، وفي ذلك تسليةٌ للمؤمنين عظيمةٌ عمَّا يكادُ يلحقُ بهم من غَمٍّ، لما يسمعونه من جَلَبَة المنافقين عليهم، وصَوْلَتهم وعداوتهم لهم؛ لأنَّ ما كان بعلمِ الربِّ سبحانه وكائنٌ لديه فهو المُجازي لفاعله المنتصِف من قائله، وكفى به سبحانه مُنصِفاً من الظالمين ومُنتقمًا من المُتخلِّقين بأخلاق المنافقين.

ثم بيَّن سبحانه لعباده حالَ هؤلاء بأكمل بيانٍ، وأوضحَه بأتمِّ إيضاح، بحيث لا يبقى بعده رَيْبٌ، ولا يختلجُ عنده شكٌّ، فقال :(**إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ و إِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا**)، فجعل سبحانه مجرَّدَ مسِّ الحسنة للمؤمنين موجبًا لـمُساءة المُتخلِّقين بأخلاق المنافقين، ومجرَّدَ إصابة ما يُساءُ به المؤمنون مُقتضيًا لحصول

الفرج لهم، وليس بعد هذا من العداوة شيءٌ، فإنَّه النهايةُ التي ليس وراءها نهايةٌ، والغايةُ التي ليس بعدها غايةٌ.

ثم شدَّ سبحانه قلوبَ عباده المؤمنين، وطمَّنَ خواطرَهم، وأثلجَ صدورَهم، أنَّهم مع الصبر والتقوى لا ينالُهم من تلك الصَّولاتِ شيءٌ، ولا يعلَقُ بهم من تلك القعاقع أمرٌ، ولا يصلُ إليهم ضررٌ البتَّة، كما يفيدُه قولُه سبحانه :**(لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)**، فجاء بلفظ شيء الذي يتناول مثقالَ الذرَّة وما دونه، فضلاً عمَّا فوقه، وليس بعد هذه التسلية الربَّانيَّة والتعزية الرحمانيَّة لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيد؛ فإنَّ هذه الألفاظ اليسيرة والكلمات الموجزة أفادتْ ما لم تُفدْه بلاغاتُ البُلغاء وفصاحات الفُصحاء، فإنَّ غاية ما نجدُه من كلامهم في هذا الشأن هو كقول قائله:

إن يسمعوا سُبَّةً طارُوا بها فَرَحًا مِنِّي　　　و مَا سمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

وكقول الآخر

إن يسمعوا الخير يُخفوه وإن سمعوا　　　شرًّا أذاعوا و إن لم يسمعوا أفكوا

إنَّ غاية ما في هذين البيتين أنَّهم يُخفون المحاسن وينشرون المساوئ، فأين هذا ممَّا وصفه الله سبحانه عنهم من إساءة الحسنة لهم وفرحهم بالسيِّئة؛ فإنَّ هذا أمرٌ وراء الإخفاء والإذاعة؛ فإنَّها لا تتأثَّرُ القلوبُ بالإساءة والفرح إلاَّ بعد تمكُّن العداوة والبغضاء تمكُّنًا زائدًا، وأما مجرَّد الإخفاء للخير والإذاعة للشرِّ فإنَّ ذلك يحصلُ لمن بُلي بمجرَّد الحسد.

ومع هذا؛ فإنَّ هذا النَّظْمَ القرآنيَّ يدلُّ على أنَّ مجرَّد ما يصلُ إلى المؤمنين مما يسمَّى حسنة يتأثَّر عنه المُساءةُ لأعدائهم، ومجرَّد ما يصلُ إلى المؤمنين مما يسمَّى سيِّئة يتأثَّرُ عنه الفرحُ لأعدائهم، كما يدلُّ عليه تنكيرُ الحسنة والسيِّئة، فإنَّ الظاهر فيه أنَّه تنكيرُ التحقير، فالحسنة الحقيرةُ والسيِّئةُ الحقيرةُ – و إن بلغت إلى الغاية في الحقارة- يتأثَّرُ عنها ذلك، فكيف بما كان فوق ذلك!

فإن قلتَ: قد ذكر الله سبحانه في هذه الآيات أوصاف أهل النفاق وما كانوا عليه، فمِن أين لك أنَّ بعض أهل عصرك كذلك؟

قلتُ: من وجدنا منه هذه الأوصاف التي اشتمل عليها الكتابُ العزيز فقد صدق عليه ما ذكره الله سبحانه في هذه الآيات، ولا شكَّ أنَّ المُتخلّق بأخلاق المنافقين، المُقتدي بهم فيما كانوا يعاملون به المؤمنين لاحقٌ بهم، وغايةُ الأمر أنْ نتورَّعَ عن الحكم بالنفاق ونقول: من اتَّصف بهذه الأوصاف فهو مُتخلّقٌ بأخلاق المنافقين، وهذا كلامٌ صحيحٌ لا يدفعُه دافعٌ ولا يردُّه رادٌّ، بل السنَّة المُطهَّرة تشهدُ له شهادةً أوضحَ من شمس النهار، وتُنادي عليه بأعلى صوتٍ، وذلك أنَّه صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ـ كما في «الصحيحين» وغيرهما ـ أنَّه قال في تبيين أخلاق النفاق أنَّها : « إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ » هكذا في الأحاديث الصحيحة من طُرُق عديدة، و قال مَنْ كَانَتْ فِيهِ خصْلَةٌ مِنْ هَذِهِ الخِصَالِ كَانَتْ فِيهِ خصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ المُنَافِقِينَ، وَمَنِ اجْتَمَعَتْ فِيهِ فَقَدْ كَمُلَ فِيهِ النِّفَاقُ، هكذا وقع القضاءُ النبويُّ على كل مُتخلّقٍ بهذه الأخلاق أو ببعضها من أهل الإسلام، و الأحاديثُ في هذا الباب متواترةٌ، يعرفُها من يعرفُ السنَّة المُطهَّرةَ.

وقد وجدنا ـ ووجد غيرُنا ـ من المتخلّقين بهذه الأخلاق من يعلمُ من بُحِث عن أحواله أنَّه إذا لم يكن فيه كلُّ هذه الخصال ففيه بعضُها، وإذا شئتَ أن تعرفَ صحَّة هذا فانظرْ إلى من غَلَب عليه، أنَّه إذا لاقاك عظَّمَك وأثنى عليك و تودَّدَ إليك، و إذا فارقَك قامَ و قعد بذمِّك، و أظهر من العداوة لك والبغضاء ما يقدرُ على إظهاره، كما قال الشاعر :

و يُجيبُني إذا لاقيتُه   وإذا يخلو له جسمي رتعْ

و يراني كالشجا في حَلْقه   عَسِرًا مخرجُه ما ينتزع

وهكذا من وعدَك فأخلفَك، أو حدَّثك فكذبَك، أو عاهدك فغدرَك، أو أمَّنتَه فخانَك، فمن وجدتَه هكذا وحكمتَ عليه بما حكم عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلَّم كان الحقُّ بيدك والصوابُ ما فعلتَه، ومن أنكر عليك ذلك فقد أنكر الشرعَ الواضحَ والسنَّة المتواترةَ.اللّهم أصلحنا وسائرَ عبادك، وادفعْ عنا شرَّ الأشرار وكيدَ الفجَّار، يا من لا إله غيرُه ولا ملجأ سواه، وحسبُنا الله و نعم الوكيل.

من الرسالة القشيرية للامام القشيري

المعرفة عَلَى لسان الْعُلَمَاء هُوَ العلم، فَكُلُّ عِلم معرفة وكل معرفة علم، وكل عالم بالله عارف، وكل عارف عالم وعند هَؤُلاءِ الْقَوْم المعرفة صفةُ منْ عرف الحقَّ سبحانه بأسمائه وصفَاتِه ثُمَّ صدق اللَّه تَعَالَى فِي معاملاته ثُمَّ تنقى عَن أخلاقه الرَّدِيئة وآفاته ثُمَّ طال بالباب وقوفُه ودام بالقلْبِ اعتكافُه فحظي من اللَّه تَعَالَى بجميل إقباله وصدَق اللَّه تَعَالَى فِي جَمِيع أحواله وانقطع عَنْهُ هواجسُ نَفْسه ولَمْ يُصْغِ بقلبه إِلَى خاطرٍ يدعُوه إِلَى غيره فإِذَا صار منْ الخَلْقِ أجنَبيا ومن آفات نَفْسه بريا ومن المساكنات والملاحظات نقِيًّا ودامَ فِي السِّرِّ مَعَ اللَّه تَعَالَى مُنَاجاته وحَقَّ فِي كُل لحظة إِلَيْهِ رجُوعُه , و صار مُحَدِّثا منْ قبْل الحقِّ سُبْحانه بتعريفِ أسرَاره فيما يُجْرِيه من تصاريفِ أقدَاره يُسَمَّى عِنْدَ ذَلِكَ عارِفًا وتُسَمَّى حالتُهُ معرِفَة بالجُمْلَة فبمقدارِ أجْنَبيته عَنْ نَفْسه تحصُلُ معرفتَه بربِّه عَزَّ وَجَلَّ وَقَدْ تكلَّمَ المشايخُ فِي المعرِفَة فكُل نطق بِمَا وقع لَهُ وأشار إِلَى مَا وجَدَهُ فِي وقته.

سمعت الأستاذ أبا عَلِي الدقاق رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَقُول: منْ أماراتِ المعرِفَة بالله حصُولُ الهَيْبة من اللَّه تَعَالَى فمَنْ ازدادت معرفَتُه ازدادت هيبَتُه.

وسمعته يَقُول: سمعت أَبِي يَقُول: سمعت أبا الْعَبَّاس الدينوري يَقُول: قَالَ أَبُو حفص: مذ عرفت اللَّه تَعَالَى مَا دَخَلَ قلبي حق ولا باطل.

قَالَ الأستاذ أَبُو القاسم: و هَذَا الَّذِي أطلقه أَبُو حفص فِيهِ طرف من الإشكال و أجَلُّ مَا يحتمله أن عِنْدَ الْقَوْم المعرفة توجب غيبة العبد عَن نَفْسه لاستيلاء ذكر الحق سبحانه عَلَيْهِ فلا يشهد غَيْر اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ولا يرجِعُ إِلَى غيْره فكما أنَّ العاقِلَ يرجِعُ إِلَى قلبه وتفكُّره وتذكره فيما يُسْنَحُ لَهُ منْ أمْرٍ أَوْ يَسْتَقْبِله منْ حالٍ فالعارفُ رجُوعه إِلَى ربِّه فَإِذَا لَمْ يكُنْ مُشتَغِلاً إلا بربِّه تَعَالَى لَمْ يكُنْ راجِعًا إِلَى قلْبِه وكيف يدخُلُ المعْنَى قلْبٌ منْ لا قلْبَ لَهُ، وفرق بَيْنَ من عاش بقلبه وبين منْ عاش بربِّه عَزَّ وَجَلَّ.

وسئل أَبُو يَزِيد عَنِ المعرفة فقَالَ: {**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً**} [النمل: 34] قَالَ الأستاذ: هَذَا معنى مَا أشار إِلَيْهِ أَبُو حفص.
وَقَالَ أَبُو يَزِيد: للخَلْق أحوالٌ ولا حال للعارفِ لأنَّه مُحِيَت رُسُومُه وفَنِيَت هويَّتُه بهويةِ غيْره وغُيِّبَت آثارُه بآثارِ غيْره.

فصل في المعرفة

قال **المُحاسبي** رحِمَه الله : أسرَعُ الأشياء عظةً للقَلْب و انكساراً له : ذكْرُ إطّلاعِ الله بالتَّعظِيم له و قال رحِمَهُ الله أجلَبُ الأشياء لتيقُّظِ القَلْبِ منْ شهوَةِ التَّقدُّمِ في الزّمان للقَلْبِ الحذَرُ من الغَفْلة عنْ الربِّ سُبحانَهُ.

قال **الجُنَيْد** و قد سُئِلَ عن الْمَعْرِفَة و أسبابِهَا فالمعرِفَةُ من الْخَاصَّة و الْعَامَّة هي معرفَةٌ واحدَةٌ؛ لأنَّ الْمَعْرُوفَ بها وَاحِدٌ و لكنْ لها أوّلُ و أعلَى فَالْخَاصَّةُ فِي أعلَاهَا و إنْ كانَ لَا يَبْلُغُ مِنْهَا غايَةً و لا نِهَايَةً إذْ لَا غايَةَ لِلمَعْرُوفِ عِنْدَ الْعَارِفِينَ و كَيْفَ تُحِيطُ الْمَعْرِفَةُ بِمَنْ لا تَلْحَقُهُ الفِكْرَةُ و لا تُحِيطُ به الْعُقُولُ و لا تَتَوَهَّمُهُ الْأَذْهَانُ و لا تُكَيِّفُهُ الرُّؤْيَةُ؟ وَأَعْلَمُ خَلْقِهِ بِهِ أَشَدُّهُمْ إقْرَارًا بِالْعَجْزِ عَنْ إدْرَاك عَظَمَتِهِ أو تَكَشُّفِ ذَاتِهِ لِمَعْرِفَتِهِمْ بِعَجْزِهِمْ عَنْ إدْرَاكِ مَنْ لا شَيْءَ مِثْلُهُ إذْ هُوَ الْقَدِيمُ و ما سِوَاهُ مُحْدَثٌ و إذْ هُوَ الْأَزلِيُّ و غَيْرُهُ الْمُبْدَأُ و إذْ هو الإِلهُ و ما سِوَاهُ مَأْلُوهٌ و إذْ هو الْقَوِيُّ مِنْ غَيْرِ مُقَوٍّ و كُلُّ قَوِيٍّ بِقُوَّتِه قَوِيٌّ و إذْ هو الْعَالِمُ مِنْ غَيْرِ مُعَلِّمٍ، و لا فَائِدَةَ اسْتَفَادهَا مِنْ غَيْرِهِ وكُلُّ عَالِمٍ فَبِعِلْمِهِ عَلِمَ، سُبْحَانَهُ الْأَوَّلُ بِغَيْرِ بِدَايَةٍ والْبَاقِي إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ و لا يَسْتَحِقُّ هذا الْوَصْفَ غَيْرُهُ و لا يَلِيقُ بِسِوَاهُ فَأَهْلُ الْخَاصَّةِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ في أعْلَى الْمَعْرِفَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبْلُغُوا مِنْهَا غَايَةً ولا نِهايَةً، و الْعَامَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَوَّلِهَا و لَهَا شَوَاهِدُ و دَلَائِلُ مِنَ الْعَارِفِينَ على أعلاهَا و على أَدْنَاهَا، فَالشَّاهِدُ على أدْنَاهَا الْإِقْرَارُ بِتَوْحِيدِ اللَّه و خَلْعِ الْأَنْدَادِ مِنْ دُونِهِ، و التَّصْدِيقُ بِهِ و بِكِتَابِهِ و فَرْضِهِ فِيهِ و نَهْيِهِ، و الشَّاهِدُ على أعلاهَا الْقِيَامُ فِيه بِحقِّه، و اتِّقَاؤُهُ في كُلِّ وقتٍ و إيثَارُهُ في جَمِيعِ خَلْقِهِ و اتِّبَاعُ مَعَالِي الْأَخْلَاقِ و اجْتِنَابُ ما لا يُقَرِّبُ مِنْهُ، فَالمَعْرِفَةُ الَّتِي فَضَّلَتِ الْخَاصَّةَ عَلَى الْعَامَّةِ هِيَ عَظِيمُ الْمَعْرِفَةِ في قُلُوبِهِمْ بِعَظِيمِ الْقَدْرِ و الْإِجْلَالِ و الْقُدْرَةِ النَّافِذَةِ و الْعِلْمِ الْمُحِيطِ و الْجُودِ و الْكَرَمِ و الْآلاءِ؛ فَعَظُمَ في قُلُوبِهِمْ قَدْرُهُ و قَدْرُ جَلالَتِهِ، و هَيْبَتُهُ و نَفَاذُ قُدْرَتِهِ، و أَلِيمُ عَذَابِهِ و شِدَّةُ بَطْشِهِ و جَزِيلُ ثَوَابِهِ و كَرَمِه و جُودِهِ بِجَنَّتِهِ و تَحَنُّنِهِ و كَثْرَةُ أيادِيهِ و نِعَمِهِ و إحسَانِهِ و رأفَتِهِ ورَحْمَتِهِ، فَلَمَّا عَظُمَتِ الْمَعْرِفَةُ بِذَلِكَ عَظُمَ الْقَادِرُ في قُلُوبِهِمْ فَأَجَلُّوهُ و هَابُوهُ و أَحَبُّوهُ و اسْتَحْيَوْا مِنْهُ و خَافُوهُ و رَجَوْهُ فَقَامُوا بِحَقِّهِ و اجْتَنَبُوا كُلَّ ما نَهَى عَنْهُ و أعْطَوهُ الْمَجْهُودَ مِنْ قُلُوبِهِم و أبدَانِهِم، و أَزْعَجَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ما اسْتَقَرَّ في قُلُوبِهِمْ مِنْ عَظِيمِ الْمَعْرِفَةِ، بِعَظِيمِ قَدْرِهِ و قَدْرِ ثَوَابِهِ و عِقَابِهِ فَهُم أَهْلُ الْخَاصَّةِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ.

الخاتمة :

هذا مختصر مفيد و شامل في نصوص العلماء و المشايخ و ما هي الا نماذج و نختم الكتاب بما ورد في متن أم البراهين للامام **السنوسي** التلمساني:

و أَمَّا قَوْلُنَا: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ صَلَى الله عليه و سلم

فَيَدْخُلُ اْلإِيمَانُ اْلأَنْبِيَاء و المَلاَئِكَة و الْكُتُب السَّمَاوِيَّة و اْليَوْم الآخِر، لأَنَّهُ عَلَيْه الصَّلاَةُ و السَّلاَمُ جَاء بِتَصْدِيقِ جَمِيع ذلِكَ كُلِّهِ.

و يُؤْخَذُ مِنْهُ: وُجُوبُ صِدْقِ الرّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ. وَاسْتِحَالَةُ الْكَذِبِ عَلَيْهِمْ، وَإِلاَّ لَمْ يَكُونُوا رُسُلاً أَمَنَاءَ لِمَوْلاَنَا الْعَالِمِ بِالخَفِيَّاتِ جَلَّ وَعَزَّ. وَاسْتِحَالَةُ فِعْلِ المَنْهِيَّاتِ كلّهَا لأَنَّهُمْ أُرْسِلُوا لِيُعَلِّمُوا النَّاسَ بِأَقْوَالِهِمْ، وَأَفْعَالِهِمْ وَسُكُوتِهِم، فَيَلْزَمُ أَنْ لاَ يَكُونَ فِي جَمِيعِهَا مُخَالَفَةٌ لأَمْرِ مَوْلاَنا جَلَّ و عَزَّ الدَّي اخْتَارَهُم عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ و أَمِنَهُمْ عَلَى سِرِّ وَحِيْهِ.
و يُؤخَذُ منْهُ: جَوازُ الأَعْرَاضِ الْبَشَرِيةِ عَلَيْهِمْ، إِدْ ذَاكَ لا يَقْدَحُ فِي رِسَالَتهِمْ، وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى بَلْ ذَاكَ ممَّا يَزِيدُ فِيهَا.

فَقَدْ بَانَ لك تَضَمُّنُ كَلِمَتَي الشَّهَادَةِ مَعَ قِلَّةِ حُرُوفِهَا لِجَمِيع مَا يَجِبُ على المُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهُ مِنْ عَقَائِدِ اْلإِيمَانِ في حَقِّهِ تعالَى و في حَقِّ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ و السَّلاَمُ.

و لَعَلَّهَا لاِخْتِصَارِهَا مع اشْتِمَالِهَا على مَا ذكَرْنَاهُ جَعَلَهَا الشَّرْعُ تَرْجمَةً عَلَى ما فِي القلْبِ مِنَ اْلإسْلاَمِ، و لَمْ يَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ اْلإِيمَان إِلاَّ بها.

فعَلَى الْعَاقِلِ أنْ يُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِهَا . مُسْتَحْضِرًا لِمَا احْتَوَتْ مِنْ عَقَائِدِ اْلإِيمَانِ. حَتَّى تَمْتَزِجَ مَعَ مَعْنَاهَا بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ. فَإِنَّهُ يَرَى لَهَا مَن اْلأَسْرَارِ و الْعَجَائِبِ إِنْ شَاء اللهُ تعَالَى مَالاَ يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرٍ. و باللهِ التَّوْفِيقُ لا رَبَّ غَيْرُهُ، ولا معْبُودَ سِوَاهُ.

نَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَجعَلَنَا وَأَحِبَّتَنَا عِنْدَ المَوْتِ نَاطِقِينَ بِكَلِمَةِ الشَّهَادَة عَالِمِينَ بها. و صلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدنَا مُحمَّد، كُلَّمَا ذكرَهُ الذَّاكرُون، وغفل عن ذِكره الغَافِلُون. و رضِيَ الله عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ أَجْمَعِينَ و التَّابِعِين لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إلى يَوم الدِّين. و سَلاَمٌ على المُرْسَلِينَ. و الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين .